

يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَام

عناصر الموضوع

٨٤ التعريف بيوسف عليه السلام

٨٨ ذكر يوسف عليه السلام في القرآن الكريم

٨٩ صفاته وأخلاقه عليه السلام

٩٥ يوسف عليه السلام وتعبير الرؤى

١٠٢ يوسف عليه السلام مع والده

١٠٧ يوسف عليه السلام وإخوته

١١٧ يوسف عليه السلام وامرأة العزيز

١٢٩ يوسف عليه السلام في السجن

١٣٥ يوسف عليه السلام في الملك

١٤٦ الدروس المستفادة من قصة يوسف

التعريف بيوسف عليه السلام

أولاً: اسمه ونسبه عليه السلام:

هو نبي الله: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم جميعاً الصلاة والسلام، قال النووي رحمه الله: وفي يوسف ست لغات ضم السين وكسرها وفتحها مع الهمز فيهن وتركه ^(١).

وهذا نسب معلوم مشهور وقد دل عليه القرآن والسنة وكفى بهما.

أما القرآن ففي قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦﴾ [يوسف: ٦].

وقوله على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾

[يوسف: ٣٨].

وأما في السنة: فحديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام) ^(٢).

وهو أحد أولاد يعقوب عليه السلام الاثني عشر ذكراً.

أما أبوه: فهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، ويعقوب عليه السلام: هو إسرائيل ^(٣) أبو بني إسرائيل الذي ينسبون إليه ^(٤).

وكان أبوه من أنبياء الله الصالحين الذين اصطفاهم الله واجتباهم وأثنى عليه مع جملة من إخوانه الأنبياء فقال: ﴿وَاذْكُرْ عِدَّتَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ٥٥﴾ إِنَّا اخْتَصَّيْنَاهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِي الدَّارِ ٥٦﴾ وَلَهُمْ عِنْدَنَا لِمَنْ الْمُصْطَفَيْنَ الْآخِرِ ٥٧﴾ [ص: ٤٥-٤٧].

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١/ ٩٤، ٢/ ١٨٦، ١٥/ ١٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٣٩٠، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين).

(٣) إسرائيل: اسمٌ عجميٌّ ممنوع الصرف للعلمية والعجمة، وقد ذكروا أنه مركبٌ من إسرا: وهو العبد، وإيل: اسمٌ من أسماء الله تعالى، فكأنه عبد الله، وذلك باللسان العبراني، فيكون مثل: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: معنى إسرا: صفوة، وإيل: الله تعالى، فمعناه: صفوة الله.

انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٢٧٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٣٠.

وقال عنه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ ﴿٨٤﴾﴾ [الأَنْعَام: ٨٤].
 وقال: ﴿فَلَمَّا أَغْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٨٥﴾﴾
 وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٨٦﴾﴾ [مَرْيَم: ٤٩-٥٠].
 وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٣﴾﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً
 يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا
 عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٧٢-٧٣].

وقد أعطاه الله علماً وبصيرة في تعبير الرؤى، وقال عنه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: ٦٨].

وأما أمه: فلم يرد ذكر اسمها في الكتاب أو السنة، والصحيح أنها عاشت وحضرت
 أحداث قصته خلافاً لمن قال بوفاتها قبل ذلك، وهذا هو الذي يدل عليه ظاهر القرآن حيث
 قال في رؤياه في بداية قصته: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [يُوسُف: ٤].
 وفسرت الشمس بأمه، وقال سبحانه في نهاية قصته: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْنَ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ
 أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ ﴿٩٢﴾﴾ [يُوسُف: ٩٩-١٠٠].
 وإذا أطلق الأبوان فالمراد بهما الأب والأم حقيقة إلا إذا وجدت قرينة صارفة ولا قرينة
 ههنا.

قال أبو جعفر ابن جرير الطبري: وأولى القولين في ذلك بالصواب ما قاله ابن إسحاق
 بأن المراد بأبويه: أبوه وأمه؛ لأن ذلك هو الأغلب في استعمال الناس والمتعارف بينهم
 في «أبوين»، إلا أن يصح ما يقال من أن أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحجة يجب
 التسليم لها، فيسلم حينئذ لها ^(١).

وقال الحافظ ابن كثير قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل
 على حياتها. وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق ^(٢).

ثانياً: زمانه عليه السلام:

يوسف عليه السلام هو النبي الخامس المنحدر من سلالة الخليل إبراهيم عليه السلام،
 ويعتبر يوسف عليه السلام من أوائل أنبياء بني إسرائيل بل لعله أولهم بعد أبيه، لأن أباه
 يعقوب هو إسرائيل الذي تنسب إليه بني إسرائيل وأنبياءهم من نسله، كموسى وهارون

(١) جامع البيان، الطبري ٢٦٧/١٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤١٢/٤.

وزكريا ويحيى وعيسى وغيرهم، وقد جاؤوا بعد يوسف كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم حين قال في سياق قصة موسى عليه السلام مع فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

وقد نشأ في حضن أبيه وعاصر إخواته وحصل منهم تجاهه ما قصه القرآن، وقد عاصر أيضًا أمما أخرى، ودعاهم إلى الله تعالى، فقد نشأ في الشام، وانتقل إلى مصر حين بيع بها رقيقًا ظلما وعدوانًا، ثم استقر له بها المقام بعد أن من الله عليه بالبراءة والنجاة من تلك المحن، ورفع من قدره، وآلت إليه أمور الملك، وجاء بوالديه وإخوته فأقاموا معه بمصر، ولا زال بها حتى توفاه الله تعالى.

ثالثًا: مكانته عليه السلام:

يوسف عليه السلام نبي من أنبياء الله، اصطفاه الله واجتباها، ورفع مكانته، ومن ملامح ذلك:

١. أنه أنزلت في شأنه سورة كاملة سميت باسمه وهي سورة يوسف، وتكرر ذكر اسمه فيها أربعًا وعشرين مرة، ولم تذكر قصته في غيرها، ولم يذكر اسمه في غيرها إلا في سورة الأنعام وغافر^(١).

٢. أثنى الله تعالى عليه في هذه السورة ووصفه بالإخلاص وأضافه إليه في زمرة عباده فقال: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

٣. أثنى عليه في جملة من الأنبياء والمرسلين وقال عنهم: ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَلِئِنَّهُمْ إِنْ يَمُوتُوا سَوَاءٌ مِمَّنْ قَبْلُهُمْ إِنَّ رَبَّنَا لَعَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [٨٣] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [٨٥] ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٨٥] ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَثَاطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [٨٦-٨٣]، [الأنعام: ٨٦-٨٣]، فقله: ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وقوله: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يشمل جميع المذكورين من إسحاق إلى هنا^(٢).

٤. لطف الله به وتولاه بعنائه في قصته والمحن التي مر بها؛ حيث حفظه في البئر وأمنه،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٩٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣٤٣.

وهياً له أن يكون في مصر في بيت العزيز مكرماً، وعصمه من فتنة النساء، وصبره في السجن، وبرأه مما اتهم به، وأنجاه من السجن، وأعطاه الملك، وجمع شمله بأبيه بعد حين من الدهر، كما سيأتي تفصيل ذلك.

٥. قال النبي صلى الله عليه وسلم منوها بمكانته: (لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي)^(١).

٦. قوله صلى الله عليه وسلم هذا فيه ثناء على يوسف عليه السلام وبيان لصبره وتأنيبه، والمراد بالداعي رسول الملك الذي أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قال: ﴿أَتُؤْتِي بِدَةٍ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَطَعَنَ أَيْدِيَهُ﴾ [يوسف: ٥٠].

فلم يخرج يوسف صلى الله عليه وسلم مبادراً إلى الراحة ومفارقة السجن الطويل؛ بل تثبت وراسل الملك في كشف أمره الذي سجن بسببه ولتظهر براءته، وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه ما قاله تواضعاً وإيثاراً للإبلاغ في بيان كمال فضيلة يوسف عليه السلام والله أعلم^(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٣٧٢، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله عز وجل: (ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه)، ومسلم في صحيحه، رقم ١٥١، في الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب.

(٢) انظر شرح صحيح مسلم، النووي ١٨٥/٢.

ذكر يوسف عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر يوسف عليه السلام في القرآن الكريم (٢٧) مرة في سورتين^(١).
وأما قصته عليه السلام فقد ذكرت في سورة واحدة حملت اسمه عليه الصلاة والسلام.

(١) المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، مركز تفسير، ١٤٤٢/٢.

(الحسن) (٢).

وقوله: (قد أعطي شطر الحسن) في معناه أقوال للعلماء، منها: أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام؛ لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان في غاية نهايات الحسن البشري (٣).

ومنها: أن المراد أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيته نبيينا صلى الله عليه وسلم (٤).

ومنها: أن المراد بـ (شطر الحسن): نصف جنس الحسن مطلقاً، أو نصف حسن جميع أهل زمانه (٥). وأياً ما كان المعنى المراد بشطر الحسن فالمقصود أن الله أعطاه جمالاً في الصورة.

ثانياً: صفاته الخَلْقِيَّة:

نبي الله يوسف عليه السلام كان متحلياً بمحاسن الأخلاق وجميل الصفات وكريم الخصال كحال إخوانه من الأنبياء والمرسلين، ومن خلال التأمل في سيرته يمكن استخلاص جملة من هذه الصفات، ومنها:

١. الإخلاص.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٦٢، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات.

(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/ ٢١٠.

(٥) مرقاة المفاتيح ٩/ ٣٧٦٦.

صفاته وأخلاقه عليه السلام

أولاً: صفاته الخَلْقِيَّة:

يوسف عليه السلام ميزه الله وأكرمه بجملة من محاسن الصفات الخلقية، وأكتفى بأبرزها وهو: جمال خلقته.

فقد كان نبي الله يوسف عليه السلام من أجمل خلق الله ومن أحسنهم وجهاً، وصار جماله مضرب المثل (١)، وقد دل على جمال صورته القرآن والسنة.

أما القرآن: فقد ذكر في قصته ما حصل من افتتان امرأة العزيز به بسبب جماله حتى راودته عن نفسه واستعانت عليه بالنسوة فلما رأيته ذهبن من جماله وقطعن أيديهن وهن لا يشعرن، وعبرن عن دهشتن من جماله وشبهته بالملائكة كما حكى ذلك القرآن حيث قال: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

وأما السنة: فما أخرجه مسلم في صحيحه من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء، وفيه: (فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم، إذا هو قد أعطي شطر

(١) وكان عمر رضي الله عنه يقول: جريز بن عبد الله يوسف هذه الأمة، يعني: في حسنه. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٢٣٨/١.

وقد شهد له بذلك رب العالمين جل جلاله حين قال: ﴿كَذَلِكَ نَصْرِفُ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وهو من أسباب عصمته من الفاحشة، «فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره، إذ ليس عند القلب السليم أحلى، ولا ألد، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاص الدين له»^(١).

٢. الكرم.

وقد دل على ذلك القرآن الكريم، ونصت عليه السنة النبوية، فقد تجلى كرمه في السجن في تعامله مع السجناء وإحسانه إليهم حتى وصفوه بالإحسان وقالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

وتجلى كرمه حين ولي الملك وصار يوزع القوت على الناس ويعود به عليهم وقال عن نفسه: ﴿لَا تَرَوْتَ أَبَى أَنْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩].

وحين عفا عن إخوته مع قدرته على الانتقام ولا يفعل ذلك إلا الكرام، وغير ذلك من صور كرمه.

وقد شهد له بهذا الخلق رسول الله صلى

(١) العبودية، ابن تيمية ص ١٢٣.

الله عليه وسلم، كما ثبت في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام)^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (قيل يا رسول الله: من أكرم الناس؟ قال: (أتقاهم) فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله) قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فعن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) وفي لفظ عند البخاري: قال: (سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الناس أكرم؟ قال: (أكرمهم عند الله أتقاهم) قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: (فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله)، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فعن معادن العرب تسألوني؟) قالوا: نعم. قال: (فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا)^(٣).

قال النووي: «قال العلماء وأصل الكرم كثرة الخير، وقد جمع يوسف صلى الله عليه وسلم مكارم الأخلاق مع شرف النبوة

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٣٥٣، في الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلاً)، ومسلم في صحيحه، رقم ٢٣٧٨، باب من فضائل يوسف عليه السلام.

﴿الْقَنَ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

ثم قالت: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

وكذلك أمانته في المال وقوله للملك ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

٥. العقبة.

في قصة يوسف عليه السلام يتجلى تمام عفته عليه السلام؛ حيث كف عن الشهوة المحرمة وعن جريمة الزنى مع توفر الأسباب والدواعي، بل بمجرد أن ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ﴾ ودون تردد ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولما أرادت أن تجبره على ذلك هرب منها ﴿وَأَسْبَقَ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥].

بل إنه لما تماهى عليه النسوة اختار السجن على فعل الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ وَأَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهنَّ إنه هو السميع العليم ﴿٣٤﴾ [يوسف: ٣٣-٣٤].

قال الحافظ ابن كثير: «وهذا في غاية مقامات الكمال لأنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيده، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال، والرياسة

مع شرف النسب، وكونه نبياً ابن ثلاثة أنبياء متناسلين أحدهم خليل الله صلى الله عليه وسلم، وانضم إليه شرف علم الرؤيا وتمكنه فيه، ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة، وحياطته للرعية، وعموم نفعه إياهم، وشفقته عليهم، وإنقاذه إياهم من تلك السنين، والله أعلم^(١)».

وكرم يوسف عليه السلام كرم أصيل في النفس، موروث من أجداده، فجده الخليل عليه السلام هو مكرم الضيفان؛ وإذا كان الأصل طيباً كان الفرع كذلك.

٣. الصدق.

حتى صار من معه في السجن يخاطبه بقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ﴾ [يوسف: ٤٦]. أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله^(٢).

«وإنما وصفه به عن خبرة وتجربة اكتسبها من مخالطة يوسف عليه السلام في السجن»^(٣).

وشهدت له بذلك امرأة العزيز أمام الملأ حين قالت: ﴿الْقَنَ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

٤. الأمانة.

وأعظم ما تجلت في كفه عن الفاحشة، وعدم خيانتة لله تعالى ولا لزوج المرأة، وقد قالت امرأة العزيز عند ساعة البراءة:

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥/١٣٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/٢٨٥.

وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

وتجلى ذلك أيضًا في صبره عن المعصية وكف نفسه عن الشهوة مع توفر الأسباب والدواعي بل ووجود المغالبة، وفي صبره في السجن حتى عندما عفي عنه وطلب من الخروج من السجن لم يستعجل للخروج بل بقي حتى ثبتت براءته، وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على صبره وقال منوها بشأنه: (ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي) (٢).

قال ابن الجوزي: قرأت سورة يوسف عليه السلام فتعجبت من مدحه عليه السلام على صبره، وشرح قصته للناس، ورفع قدره بترك ما ترك، فتأملت خبيثة الأمر، فإذا هي مخالفة للهوى المكروه، فقلت: وا عجبًا! لو وافق هواه من كان يكون؟! ولما خالفه، لقد صار أمرًا عظيمًا، تضرب الأمثال بصبره، ويفتخر على الخلق باجتهاده، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة، فيا له عزًا وفخرًا، أن تملك نفسك ساعة الصبر عن المحبوب وهو قريب (٣).

٨. الشكر.

كان من صفاته عليه السلام شكر الله

ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك؛ خوفًا من الله ورجاء ثوابه (١).

بل من عجيب أمره أنه يدعى إلى الخروج من السجن فيأبى ويرفض الخروج إلا بعد ثبوت براءته وتطهير سمعته ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْثِرُ بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَيْكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِسْوَاءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَيْكَ يَكِيدُنَّ عَلَيَّ﴾ [يوسف: ٥٠].

فأي عفة هذه؟!

٦. العفو والصفح.

وهذا من أعظم ما تجلى من خلق يوسف عليه السلام في قصته مع إخوته، فبعد كل الأذى الذي لحق به منهم: كالهمل بقتله وإلقائه في البئر والتفريق بينه وبين أبيه، والتسبب في تلك المحن المتتالية: محنة البئر ومحنة الرق ومحنة فتنة المرأة ومحنة السجن؛ لكنه مع كل ذلك عفا عنهم وسامحهم وهو في موقع قوة ولو شاء أن ينتقم لانتقم ولكنه لم يفعل، بل قال تلك الكلمة العظيمة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

فضرب أروع الأمثلة في العفو والصفح.

٧. الصبر.

تجلى ذلك في صبره على أذى إخوته وعفوه عنهم وقوله لهم مبينا فضل الصبر: ﴿قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ

(٢) سبق تخريجه.

(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص ٢٢٨.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٠.

على نعمه ورد الفضل إليه، تجلى ذلك في قوله للسجينين: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَاهُ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧].

وفي قوله: ﴿وَأَتَيْنَتْ يَلَّةَ مَابَأَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا أَن تَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

وفي قوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].
٩. التواضع.

وهذا واضح من خلال الآيات السابقة ورده الفضل دائماً إلى الله تعالى لا إلى نفسه، ومن خلال تواضعه لوالديه، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وعدم نسيانه للسجن حتى وهو في الملك حيث قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

١٠. العلم.

علم الوحي وعلم تعبير الرؤى وعلم سياسة الناس وغيره.

قال عنه الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ أَمِينٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦١] وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ [يوسف: ٢١-٢٢].

وقال هو عن نفسه مخاطباً الفتيين في السجن: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَاهُ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧].

١١. الإحسان.

شهد له بذلك رب العزة جل وعلا حيث قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُفِصِلُ بَرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

ووصفه بذلك أهل السجن حين قالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

ووصفه بذلك إخوته حين قالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨].

١٢. العدل.

تجلى ذلك من خلال سياسته في الملك وعدله في توزيع الطعام بين الناس في سني الجذب وإعطائه لكل واحد حمل بغير لا يزيد عليه، ومن خلال قوله لإخوته لما طلبوا منه أن يأخذ واحداً منهم بدلاً من أخيه الذي وجد المتاع في رحله: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدهُ إِذَا ظَلَمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٧٩].

١٣. حفظ الجميل.

حيث حفظ جميل العزيز وإحسانه إليه؛

والأحاديث الواردة في شأنه، وأسأل الله العفو والمغفرة عن أي خطأ أوزلل.

فلم يخنه من ورائه، وذكر ذلك لامرأته لما راودته ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

فقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ قصده العزيز، «فذكر عنوان الربوبية هنا دون السيادة؛ لما فيه من الاعتراف بالمعروف والفضل، وهذا دليل على أن من المروءة ورفيع الأخلاق أن يحفظ الإنسان حق من أحسن إليه، فضلاً عن أن يخونه، والسياق دال على أن المراد هو من رباه وقال: أكرمي مثواه، لا خالقه؛ لأنه المتبادر إلى مفهوم المرأة المتلقية للخطابة»^(١).

١٤. الغيرة على دين الله.

حتى إنه مارس الدعوة وهو داخل السجن، وقال منكراً على من عبد غير الله ﴿يَنْصَحِي السَّجْنَءَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

١٥. الأناة.

وهذا واضح من خلال امتناعه عن الخروج من السجن - حين طلب منه ذلك - حتى تثبت براءته، وحين تأني في الإتيان بوالديه وضم الأسرة إليه؛ ليكون ذلك على أحسن حال وأنسب وقت، وغير ذلك.

هذا ما بدا لنا من صفات يوسف وأخلاقه من خلال التأمل في قصته والآيات

(١) ليدير وآياته، ٣١١/٢.

ودلائل التوحيد»^(٣).

ثانيًا: رؤيا يوسف عليه السلام:

تبدأ قصة يوسف عليه السلام ورحلته مع الرؤى من الرؤيا التي رآها في المنام وهو صغير؛ فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة، وهكذا إذا أراد الله أمرًا من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلًا لأمره، واستعدادًا لما يرد على العبد من المشاق؛ لطفًا بعبده؛ وإحسانًا إليه^(٤).

قال الطاهر ابن عاشور: وابتداء قصة يوسف عليه السلام بذكر رؤياه إشارة إلى أن الله هيا نفسه للنبوة فابتدأه بالرؤيا الصادقة كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها (أن أول ما بدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)^(٥).

وفي ذلك تمهيدٌ للمقصود من القصة وهو تقرير فضل يوسف عليه السلام من طهارة وزكاء نفسٍ وصبر؛ فذكر هذه الرؤيا

يوسف عليه السلام وتعبير الرؤى

أولًا: تعليم الله إياه تعبیر الرؤى:

برع يوسف عليه السلام في تعبیر الرؤى وتفسير الأحلام^(١)، فكان إذا عبر الرؤيا وقعت كما عبرها، وقد كان ذلك بتعليم الله تعالى له، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكِّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١].

وقال له والده: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦].

وقال هو عن نفسه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

فقد بين الله جل وعلا أنه علم نبيه يوسف عليه السلام من تأويل الأحاديث، وتأويل الأحاديث هو: تعبیر الرؤيا^(٢).

قال القرطبي: وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا، وقيل: أحاديث الأمم والكتب

(١) قال القرطبي: وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، أي: الرؤى، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك، وكان الصديق رضي الله عنه من أعبر الناس لها، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم، والطبع والإحسان، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيب فيما ذكروا.

انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢٩/٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١٠/٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢٩/٩.

(٤) تفسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٩٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ومسلم في صحيحه، رقم ١٦٠، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي برسول الله صلى الله عليه وسلم.

تعبير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه أحاديث الأمم والكتب السماوية ونحوها. **﴿وَسِعَتْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾** أي: بالنبوة، وما انضاف إليها من سائر النعم.

﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي: يجعل فيهم النبوة، إضافة إلى ما ينالهم من النعم بسببكم. **﴿كَمَا أَتَمَّمَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَلَا تَنْقُ﴾** حيث أنعم عليهما بإنعامات كبيرة أعظمها النبوة والرسالة، «وعبر عنهما بالأبوين مع كون أحدهما جدًا وهو إبراهيم؛ لأن الجد أب»^(٣).

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ أي: بخلقه **﴿حَكِيمٌ﴾** أي: في تدبيره فيضع كل شيء في موضعه فيكرم من هو أهل للإكرام، ويحرم من هو أهل للحرمان^(٤).

ولما بان تعبيرها ليوسف، نهاه أبوه أن يخبر بها إخوته؛ لئلا يحسدوه، وقال له: **﴿يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾** [يوسف: ٥]. أي: حسدًا من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]. أي: بين العداوة، لا يفتر عنه ليلاً ولا نهارًا، ولا سرًا ولا جهارًا، فالبعد عن

في صدر القصة كالمقدمة والتمهيد للقصة المقصودة، وجعل الله تلك الرؤيا تنبيهًا ليوسف عليه السلام بعلو شأنه ليتذكرها كلما حلت به ضائقة فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبة^(١).

ولما رأى يوسف عليه السلام تلك الرؤيا قصها على والده يعقوب عليه السلام كما قال تعالى: **﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾** [يوسف: ٤].

ففهم أبوه تأويل هذه الرؤيا، وأولها بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكرامًا وإعظامًا، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتناء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض، وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعًا له فيها^(٢).

ولهذا قال: **﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ﴾** [يوسف: ٦]. أي: كما أراك ربك، هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك، فكَذَلِكَ يختارك ويصطفيك لنبوته.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: من

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٨/٣.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١٠/٢، تفسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٣، أيسر التفاسير، الجزائري ٥٩٤/٢.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠٨/١٢.

(٢) تفسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٩٣.

ثالثاً: تعبيره لرؤيا صاحبي السجن:

من نماذج تعبير يوسف عليه السلام للرؤى وعلمها بها: ما كان من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن أثناء فترة وجوده في السجن؛ حيث إنهما رأيا مناماً فسألاه عن تعبيره لما رأيا عليه من سيما الصلاح، فكان من الأمر ما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ﴾ [يوسف: ٣٦] أي: شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليبرها.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آعْصِرُ خَمْرًا﴾
أي: أعصر عنباً ليكون خمرًا.

﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتُهَا بِتَأْوِيلِهِ﴾
أي: بتفسيره وما يؤول إليه أمرهما.

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾
أي: من أهل الإحسان إلى الخلق، فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا كما أحسنت إلى غيرنا، فتوسلا ليوسف بإحسانه^(٧).

قال ابن كثير: «والمشهور عند الأكثرين والذي يدل عليه ظاهر السياق: أنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره، خلافاً لمن قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئاً، إنما كانا تحالماً ليجربا عليه»^(٨).

(٧) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧، أيسر التفاسير، الجزائر ٢/ ٦١١.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢.

الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى^(١). قال الشوكاني: «كان يوسف عليه السلام قال: كيف يقع منهم؟! فنبهه بأن الشيطان يحملهم على ذلك؛ لأنه عدو للإنسان مظهر للعداوة مجاهرٌ بها»^(٢).

وظاهر الآية أن يوسف عليه السلام لم يقص رؤياه على إخوته وهو المناسب لكمالته الذي يبعثه على طاعة أمر أبيه^(٣)، قال السعدي: «فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم»^(٤).

قال القرطبي: «هذه الآية أصل في ألا نقص الرؤيا على غير شقيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها»^(٥).

وقد وقع تفسير هذه الرؤيا كما رآها يوسف عليه السلام بعد فترة من الزمن - وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه: ﴿وَحَرَّوَالَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: رؤيا الأنبياء وحي^(٦).

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٣.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٧/ ٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢١٥.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٦.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٠.

فأخبرهما بأنه عارف بتعبير الرؤى وأن ذلك بتعليم الله إياه ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧].

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال لأهل التفسير كلها تحتملها الآية:

القول الأول: أن يوسف عليه السلام قال للفتيين: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا﴾ أيها الفتيان في منامكما ﴿طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ في يقظتكما ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ ويعنى بقوله: ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾: ما يؤول إليه؛ فهو يخبرهما أنهما مهما رآيا في نومهما من حلم، فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه^(١).

والقول الثاني: أنه وعدهما بأنه يعبر لهما رؤياهما غير بعيد، وجعل لذلك وقتاً معلوماً لهما، وهو وقت إحضار طعام المساجين، يقول: لا يأتیکما غذاؤكما، أو عشاؤكما، أول ما يجيء إلیكما، إلا نبأتكما بتأويله -أي: بتأويل ما رأيتما في منامكما- قبل أن يأتیکما طعامكما، ووصف الطعام بجملة ﴿تُرْزَقَانِيهِ﴾ تصريح بالضبط بأنه طعام معلوم الوقت^(٢).

القول الثالث في الآية معناه: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا

طَعَامٌ﴾ في السجن إلا أخبرتكما بماهيته قبل مجيئه حلواً وحامضاً وغيره كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَأَنْتُمْ كُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]^(٣).

وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه، بل جعله عليه السلام مقدمة قبل تعبيره لرؤياهما بياناً لعلو مرتبته في العلم، وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتخمين؛ وإنما قال يوسف عليه السلام لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر^(٤).

ولذلك قال: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧]. أي: هذا إنما هو من تعليم الله إياي^(٥).

والأقرب القول الثالث: وهو أنه يخبرهما بماهيته طعامهما وحقيقته قبل مجيئه إليهما وذلك بتعليم الله إياه، كحال عيسى عليه السلام.

وقوله في الآية: ﴿طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ﴾ يدل على أنه طعام حقيقة لا مناماً، والضمير في قوله: ﴿إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ يرجع إلى أقرب مذكور وهو الطعام. والله أعلم.

ثم عبر لهما ما رأيا فقال: ﴿يَصْنَعِي

(٣) نظر قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩١/٩.

(٤) فتح القدير، الشوكاني ٣٢/٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٢٢/٢.

(١) انظر جامع البيان، الطبري ١٦/١٠٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦٢٢.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٢/٢٧١، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.

رابعاً: تعبيره لرؤيا الملك:

أيضاً من نماذج تعبير يوسف عليه السلام للرؤى وعلمه بها تعبيره لرؤيا الملك-ملك مصر- والتي كانت بتدبير الله تعالى؛ لتكون سبباً لرفعة شأنه وخروجه من السجن.

وكان من تفاصيلها ما حكاها الله بقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ﴾ [يوسف: ٤٣]. جمع عجف، وهي المهازيل^(٥).

﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ﴾ وقد أهمه أمر هذه الرؤيا فقصها على علماء قومه وكبراء دولته، وسألهم عن تأويلها، قال: ﴿يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٌ فِي رُءْيَا إِن كُثِرَ لِرُءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

فتحيروا ولم يعرفوا لها وجهاً ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤].

والأضغاث^(٦): الأخطا، أي: أخطا أحلام من الليل لعلها لا تعبير لها، ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾^(٧).

السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا

[يوسف: ٤١].

وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، فإنه يخرج من السجن ويسقي سيده الذي كان يخدمه خمراً، وذلك مستلزم لخروجه من السجن، ولكنه لم يعينه لثلاثي خزان ذلك؛ ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه ﴿فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ [يوسف: ٤١]^(١).

فإنه عبر عن الخبز الذي تأكله الطير، بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في محل تتمكن الطيور من أكله^(٢).

ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة ﴿ثُمَّ لَاقَى الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾

[يوسف: ٤١] لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت، كما ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم: (الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت)^{(٣)(٤)}.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦٢٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦١٨٢، والترمذي في سننه، رقم ٢٢٧٨ و ٢٢٧٩، وأبو داود في سننه، رقم ٥٠٢٠، كتاب الأدب، باب ما جاء في الرؤيا.

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦٢٢.

(٥) جامع البيان، الطبري ١٦/١٢٥.

(٦) الأضغاث: جمع ضغت، والضغت أصله الحزمة من الحشيش، يشبه بها الأحلام المختلطة التي لا تأويل لها.

انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/١١٨.

(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦٢٤، ٦٢٥، قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٣٣١.

سَمَانُ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ
خَضِرٍ وَأُخْرَى يُسَمِّي لَمْ يُدْعِ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ [يوسف: ٤٦].

فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهتمهم،
فأجابه يوسف عليه السلام لما طلب
وعبرها له ف ﴿تَاللَّهِ لَإِنَّكَ لَأَنْتَ الَّذِي كُنْتَ تُدْعَى فِيهِ﴾
[يوسف: ٤٧].

أي: متواليّة متتابعة على عادتكُم^(٢).
والمعنى: يأتيكم الخصب والمطر سبع
سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها
تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات
والزروع، وهن السنبلات الخضرة، ثم
أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين
فقال: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ﴾ أي: اتركوه ﴿فِي
سُنْبُلِهِ﴾ لَأَقْلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ [يوسف: ٤٧].

أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين
الخصب فاتركوه في سنبله؛ ليكون أبقي له
وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار
الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا
فيه، لتتفعوا في السبع الشداد ﴿ثُمَّ يَأْتِي
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: بعد تلك السنين السبع
المخصبات ﴿سَبْعَ شِدَادٍ﴾ [يوسف: ٤٨].

أي: مجلدات صعاب وهن سنون

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر
منهم، بما ليس بعذر، ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ
بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أي: لا نعبر إلا الرؤيا،
وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو
من حديث النفس فإننا لا نعبرها. فجمعوا
بين الجهل والجزم بأنها أضغاث أحلام،
والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا:
لا نعلم تأويلها وهذا من الأمور التي لا
تنبغي لأهل الدين والحجاء^(١).

ولما سمع الفتى - الساقى الذي نجا -
هذه المقالة من الملك ومراجعة أصحابه،
تذكر يوسف وعلمه بتأويل الرؤى، كما قال
تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ [يوسف: ٤٥].
أي: من الفتين، وهو الذي رأى أنه
يعصر خمراً، وهو الذي أوصاه يوسف
أن يذكره عند ربه فنسي ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أَمْنٍ﴾
[يوسف: ٤٥].

أي: تذكر يوسف عليه السلام بعد
مدة من الزمن وهي بضع سنين، وتذكر ما
جرى له في تعبيرة لرؤياهما، وما وصاه به،
وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا، فطلب
منهم إرساله إليه ليأتيهم بتأويل هذا المنام،
وقال لهم: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾
[يوسف: ٤٥].

فأرسل إليه فجاءه وخاطبه قائلاً
﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ

(٢) قال ابن عطية: والدأب، يسكون الهمزة
وفتحها، مصدر دأب يدأب، إذا لازم فعل
شيء ودام عليه مجتهداً فيه، ويقال للعادة:
دأب.

انظر: المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

أي: يأتيهم الغيث، وهو المطر، وتكثر الغلات، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم، من الأقصاب والأعنان والزيتون والسمن وغيرها^(٣).

قال ابن جرير: وهذا خبر من يوسف عليه السلام للقوم عما لم يكن في رؤيا ملكهم، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله دلالة على نبوته وحجة على صدقة^(٤).

وقال السعدي: «ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك؛ لأنه فهم من التقدير بالسبع الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجذب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جدًا، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح^(٥). وكان ذلك سببًا في خروجه من السجن.

الْمَحْلِ ﴿يَا كُنْ مَا قَدَّمْتُمْ لَنَا﴾ لأن سني الجذب يؤكل فيها ما جمعه في سني الخصب ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ﴾ [يوسف: ٤٨].

أي: إلا يسيرًا مما تحزونه وتدخرونه^(١). فعبّر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضربأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف، والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سنين مجذبات، قال السعدي: «ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجذب لما كان الحرث مبنيا عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجذب بالعكس من ذلك، وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحروث في الغالب، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب، إلى سني الجذب^(٢).

ثم بشرهم بعد الجذب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عَامٌ فِيهِ يَمُوتُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩].

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٤، قصص الأنبياء، ص ٣٣٢.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٢٨.

(٥) تفسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٤، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٤٩.

(٢) تفسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

يوسف عليه السلام مع والده

أولاً: مكانة يوسف عليه السلام عند والده:

كان يوسف عليه السلام أحب إخوته إلى أبيه أثيراً عنده مقرباً لديه، فكان يعقوب عليه السلام يحبه حباً شديداً ولا يقوى على فراقه؛ «لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخُلُقِ والخُلُقِ، صلوات الله وسلامه عليه»^(١).

وقد نشأ يوسف عليه السلام في كنف والده، يشاوره في أموره ويسر إليه بما يحدث له، ومن ذلك قصة الرؤيا التي رآها؛ إذ رأى وهو صغيرٌ كأن أحد عشر كوكباً، وهم إشارةٌ إلى بقية إخوته، والشمس والقمر وهما عبارةٌ عن أبويه قد سجدوا له، فلما استيقظ قصصها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلةً عاليةً ورفعةً عظيمةً في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته؛ كيلا يحسدوه، ففعل^(٢).

وقد كانت محبته ليوسف وأخيه «أمراً لا يملك صرفه عن نفسه؛ لأنه وجدانٌ ولكنه لم يكن يؤثرهما عليهم في المعاملات والأمر

الظاهرية»^(٣).

وهذا الحب من يعقوب عليه السلام لابنه يوسف دفع إخوته إلى حسده والتآمر عليه؛ حتى فرقوا بينه وبين أبيه.

ثانياً: محنة الفراق:

من أصعب المحن التي مرت على يعقوب عليه السلام: محنة التفريق بينه وبين حبه وفلذة كبده يوسف عليه السلام، حين تأمر عليه إخوته، وتحاولوا على أبيهم، وزعموا أنهم يريدون اصطحابه معهم للعب، وتعهّدوا بحفظه، والنصح له، ولكن كان التخطيط غير ذلك، فذهبوا به وألقوه في البئر ورجعوا بدونه، زاعمين أنه أكله الذئب وبدأت رحلة المعاناة للابن والأب:

أما الابن: فقد تعرض لأربع محن عظيمة، وهي محنة الإلقاء في البئر، ومحنة البيع رقيقاً ظلماً وعدواناً، ومحنة فتنة المرأة، ومحنة السجن؛ ولكن الله لطف به في هذه المحن كلها، ونجاه منها جميعها، وكانت عاقبته رفعة المنزلة في الدارين، وقد بين طريق الوصول إلى مثل ذلك حين قال:

﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وأما الوالد: فقد كان ألم الفراق بالنسبة له عظيماً وكان وقعه عليه شديداً، فلم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١٢/٢.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٧.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢١/١٢.

قائلاً: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَسَدًا﴾ [يوسف: ٨٣].

ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخوه الشقيق، وأخوهم الكبير الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يقدر الله له المجيء وحده، أو مع أخيه؛ ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

أي: ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالي ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره^(٣).
هكذا قالها يعقوب عليه السلام بكل يقين وحسن ظن بالله.

ثم أعرض عن بنيه كما قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ وذلك لما جاؤوا من غير أخيه وأخبروه الخبر، وقد ساء ظنه بهم ولم يصدق قولهم، وجعل يتفجع ويتأسف ﴿وَقَالَ يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ﴾ يا حزنه على يوسف، والأسف أشد الحزن ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد^(٤)،

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٣٣/٢، تفسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٣.

(٤) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٤، معالم التنزيل، البغوي ٥٠٩/٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٧١/٣.

يصدق أبناءه حينما جاءوا عشاءً يكون وزعموا أنه أكله الذئب، ولطخوا قميصه بالدم المكذوب، ولم يرج هذا الصنيع عليه، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨].

ثم لجأ إلى الله في كشف محنته وتحلي بالصبر الجميل وردد قائلاً: ﴿فَصَبِرْ جَسَدًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

أي: فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي قد اتفقت عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه^(١)، تماماً كما قال تعالى ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقد اشتد حزنه العميق على فقد يوسف عليه السلام، ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، فجدد الحزن الجديد الحزن القديم، حتى ذهب بصره أو كاد؛ من الحزن وكثرة البكاء كما قال جل وعلا: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]^(٢).

ولكنه عليه السلام لم يفقد الأمل في اللقاء بيوسف مجدداً، بل كان عنده يقين بذلك؛ ولهذا لما جاءه أولاده بخبر فقد أخيهما الآخر - شقيق يوسف - خاطبهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١٢/٢.

(٢) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١١، وفتح القدير، الشوكاني ٥٧/٣.

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق ﴿قَالُوا﴾ له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَنُوا تَذَكَّرُ يُونُسُ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ مشرفاً على الهلاك لطول مرضك ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].

أي: الموتى، يقولون: لا تزال تذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك أو تهلك، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك ^(١).

فأجابهم يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

يقول لهم: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي﴾ أي: ما أثبت من الكلام ﴿وَحُزْنِي﴾ الذي في قلبي ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه سيردهم علي ويقر عيني بالاجتماع بهم، وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع، ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأي ^(٢).

ثم أمر أولاده بالذهاب للبحث والتفتيش عن يوسف عليه السلام وعدم اليأس والقنوط من ذلك؛ فإن اليأس ليس من صفة

المؤمن ﴿يَبْقَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ﴾ أي: اطلبوا خبرهما، واستقصوا، ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ أي: رحمته؛ فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإيأس يوجب له التشاغل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تشبهوا بالكافرين، ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاءه لرحمة الله ^(٣). فلم يخيب الله ظنه بل حقق له ما رجاه.

ثالثاً: اجتماع الشمل:

وبعد طول فراق -امتد لعدة سنين قيل: ثمانين سنة. وقيل: أربعين. وقيل غير ذلك، وهي لا تقصر ^(٤) عن خمسة عشر عاماً- يجتمع الشمل، ويحقق الله الرجاء، ويجمع الله بين يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام. لما جاء إخوة يوسف في المرة الأخيرة لشراء الطعام من مصر وتعرف عليهم يوسف عليه السلام، أعطاهم قميصه وأمرهم أن يضعوه على عيني أبيه فإنه يرجع إليه بصره، بإذن الله، قال: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٦، تفسير الجلالين، ص ٣١٦.

(٢) انظر تفسير الكريمة الرحمن، ص ٤٠٤، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٦.

(٣) تفسير الكريمة الرحمن، ص ٤٠٤، وتفسير الجلالين، ص ٣١٦.

(٤) انظر تفسير الكريمة الرحمن، ص ٤١١.

فوقع ما ظنه بهم ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ
الْعَكِيدِ﴾ [يوسف: ٩٥].

أي: في حبك القديم ليوسف^(٣)، قال
قتادة: «أي: من حب يوسف لا تنساه، قالوا
لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن
يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله صلى الله
عليه وسلم»^(٤).

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ وهو المبشر
برسالة يوسف ﴿الْقَسَّةَ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَزْتَدَّ
بَصِيرًا﴾ أي: بمجرد ما جاء ألقى القميص
على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيرًا
بعدما كان ضريراً، فقال لابنيه عند ذلك: ﴿أَلَمْ
أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾
[يوسف: ٩٦].

أي: أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف؛
لأن رؤيا يوسف كانت صادقة، وكان الله قد
قضى أن آخر أنا وأنتم له سجوداً، فكنت
موقناً بقضائه، ولا تعلمون أنتم من ذلك ما
أعلمه^(٥).

هنا شعر الأبناء بالخرج من جراء ما
اقتروا ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا
خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٦،
تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٥٧، تفسير القرآن
العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٦.

(٥) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٥٠،
جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٥٨-٢٦٠.

﴿فَأَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣].
قال السعدي: لأن كل داء يداوى بضده،
فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف،
الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما
الله به عليم أراد أن يشمه فترجع إليه روحه،
وتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، ولله
في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد،
وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر^(١).

قال ابن كثير: وهذا من خوارق العادات
ودلائل النبوات وأكبر المعجزات^(٢).
وأمرهم أيضاً أن يأتوا بأهلهم أجمعين
إلى ديار مصر؛ ليجتمع الشمل بعد الفقرة،
ويزول عنهم ضنك الرزق قال: ﴿وَأَتَوْفَى
بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

وحصلت معجزة أخرى وهي إيصال
الله تعالى ريح يوسف عليه السلام لأبيه
من مكان بعيد، فما أن خرجت العير
-القافلة- من أرض مصر مقبلة إلى أرض
فلسطين حتى شم يعقوب عليه السلام
ريح القميص، ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْغَيْرُ قَالَ
أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ
تَفْتِنُونِ﴾ [يوسف: ٩٤].

أي: تسخرون مني، وتقولون إنما قلت
هذا من الفند، وهو الخرف وكبر السن،

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٩.

فعفا عنهم و ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١) [يوسف: ٩٨].

وقد قيل: إنه آخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل؛ ليكون أتم للاستغفار، وأقرب للإجابة (١).

فارتحل يعقوب عليه السلام ومن معه إلى مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ وهما أبوه وأمه على الصحيح، أي: ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام والتبجيل والإعظام شيئاً عظيماً ﴿وَقَالَ﴾ لجميع أهله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩] من جميع المكاره والمخاوف (٢).

ومن أدبه مع والديه واحترامه لهما لم يجلسهما على الأرض ويجلس هو على سرير الملك بل أجلسهما معه ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهو سرير الملك ﴿وَحَرَّوْا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي: أبوه، وأمه وإخوته، وقد كان ذلك جائزاً في شريعتهم لكنه منع في شريعتنا.

قال ابن عطية: «وأجمع المفسرون أن ذلك السجود- على أي هيئة كان- فإنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه

الامة السلام تحية أهل الجنة» (٣) ﴿وَقَالَ﴾ لما رأى سجودهم له: ﴿يَتَابَتِ هَذَانِ آوِيْلُ رُءُيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ حين رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر لي ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام، بل تحققت ووقعت كما رأيتها (٤).

ثم رد الفضل في ذلك كله إلى الله وأنه هو الذي حفظه ونجاه وجمع شمله به بهم بعد طول فراق ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٨١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.

بني إسرائيل كلهم، وكان أشرفهم وأجلهم يوسف عليه السلام^(٣)، وقد جاءت الإشارة إليهم في آية الرؤيا حين قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: ٤].

وقد كان أحدهما شقيقا ليوسف والبقية إخوته لأبيه كما يشير إلى ذلك قولهم المذكور في الآية: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾ [يوسف: ٨].
فقولهم ﴿وَأَخُوهُ﴾ أي: شقيقه، وإلا فكلهم إخوة^(٤).

٢. أسماءهم.

لم يرد ذكر أسمائهم في شيء من القرآن أو صحيح السنة سوى يوسف عليه السلام، وقد اشتهر عند المؤرخين والمفسرين بأن أخاه الشقيق يقال له: (بنيامين) وقد جاء في حديث مرفوع ذكر أسمائهم لكنه لم يصح^(٥).

٣. القول بنبوتهم.

اختلف العلماء في نبوة إخوة يوسف عليه السلام: فذهبت طائفة إلى أنهم كانوا أنبياء، وأنهم هم أسباط بني إسرائيل المذكورون في القرآن في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

يوسف عليه السلام وإخوته

يقول الله تعالى عن يوسف وإخوته: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].

أي: عبر ومواعظ، لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإن السائلين هم الذين يتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا يتفعون بالآيات، ولا بالقصص والبيانات^(١).

وعن سبب نزولها قال أبو حيان الأندلسي: وسبب نزولها أن كفار مكة أمرتهم اليهود أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر فنزلت. وقيل: سببه تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يفعل به قومه بما فعل إخوة يوسف به. وقيل: سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحدثهم أمر يعقوب وولده، وشأن يوسف. وقال سعد بن أبي وقاص: أنزل القرآن فتلاه عليهم زمانًا فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزلت^(٢). ويمكن إجمال القول عن يوسف عليه السلام مع إخوته فيما يلي:

١. عددهم.

كان ليعقوب عليه السلام من البنين اثنا عشر ولدًا ذكرًا، وإليهم تنسب أسباط

(١) المصدر السابق ص ٣٩٤.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٣٤.

(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٣٠٩.

(٤) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٠، الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، الشوكاني ص ٤٦٣.

وَأَسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ ﴿البقرة: ١٣٦﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْتِنَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَأَسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ [النساء: ١٦٣].

فقد عطفهم الله على يعقوب عليه السلام وأخبر أنه أوحى إليهم، وأما ما حصل منهم تجاه أخيههم فقد كان قبل نبوتهم، وقد تابوا منه فتاب الله عليهم وأوحى إليهم بعد ذلك^(١).

وذهب فريق إلى أن إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء؛ لعدم ورود دليل صريح على ذلك؛ ولأن ما قاموا به نحو أخيههم لا يتناسب مع مقام النبوة.

قال الحافظ ابن كثير: «وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره، وباقى إخوته لم يوح إليهم، وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول، ومن استدل على نبوتهم بقوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَأَسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾

[البقرة: ١٣٦] وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوي؛ لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من

السماء، وما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه ما نص على واحد من إخوته سواه، فدل على ما ذكرناه»^(٢).

قال القرطبي تعليقاً على تأمرهم عليه: وفي هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولاً ولا آخرًا؛ لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلم، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصية ثم تابوا^(٣).

قال أبو محمد ابن حزم: «إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء، ولا جاء قط في أنهم أنبياء نص: لا من قرآن، ولا من سنة صحيحة، ولا من إجماع، ولا من قول أحد من الصحابة رضي الله عنهم، وأما يوسف صلى الله عليه وسلم فرسول الله بنص القرآن.

قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقًّا إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

وأما إخوته فأفعالهم تشهد أنهم لم يكونوا متورعين عن العظائم فكيف أن يكونوا أنبياء؟! ولكن الرسولين أباهم وأخاهم قد استغفرا لهم، وأسقطا الشريب

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٣٠٩ وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١١/٢، ٢٤٧/١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣٣/٩.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٨، الرسل والرسالات، الأشقر، ص ١٩.

من هذا.

ورابعها: لو كان ذلك لوجب ولابد أن تكون اليهود كلهم أنبياء إلى اليوم، بل جميع أهل الأرض أنبياء؛ لأنه يلزم أن يكون الكل من ولد آدم لصلبه أنبياء؛ لأن أباهم نبي وأولاده أنبياء أيضًا؛ لأن آباءهم أنبياء وهم أولاد أنبياء، وهكذا أبدًا حتى يبلغ الأمر إلينا^(١).

٤. تأمرهم عليه.

لما رأى إخوة يوسف حب أبيه له وميله إليه وإلى أخيه-شقيقه- دب الحسد في قلوبهم، وزين لهم الشيطان الانتقام منه، فتآمروا عليه، وعزموا على التفريق بينه وبين أبيه، ونفذوا ما عزموا عليه، وأبعدوه عن والده، وجروا عليه وعلى والده محن عظيمة امتدت لسنوات طوال.

قال تعالى حاكياً ما حصل منهم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّاعِلِينَ ۖ إِذْ قَالُوا لِلْيُوسُفِ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَضَبَةٌ﴾ [يوسف: ٧-٨].

أي: جماعة، يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين.

﴿إِنَّا بَنَاءٌ لِّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] أي: لفِي خطأ بين؛ بتقديمه جبهما علينا^(٢).

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، ٨/٤.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٢، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.

عنهم؛ ولقول الله تعالى حاكياً عن الرسول أخيه عليه السلام أنه قال لهم: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧].

ولا يجوز البتة أن يقوله لنبي من الأنبياء، نعم ولا لقوم صالحين، إذ توقيف الأنبياء فرض على جميع الناس؛ لأن الصالحين ليسوا شرا مكانا وقد عتق ابن نوح أباه أكثر مما عتق به أخوة يوسف أباهم إلا أن إخوة يوسف لم يكفروا، ولا يحل لمسلم أن يدخل في الأنبياء من لم يأت نص ولا إجماع أو نقل كافة بصحة نبوته.

فإن ذكروا في ذلك ماروي عن بعض الصحابة رضي الله عنهم وهو زيد بن أرقم: إنما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاد الأنبياء أنبياء، فهذه غفلة شديدة وزلة عالم من وجوه:

أولها: أنه دعوى لا دليل على صحتها. وثانيها: أنه لو كان ما ذكر لا يمكن أن ينبا إبراهيم في المهد كما نبى عيسى عليه السلام، وكما أوتي يحيى الحكم صبيًا، فعلى هذا القول لعل إبراهيم كان نبياً، وقد عاش عامين غير شهرين، وحاشا لله من هذا.

وثالثها: أن ولد نوح كان كافراً بنص القرآن، فلو كان أولاد الأنبياء أنبياء لكان هذا الكافر المسخوط عليه نبياً، وحاشا لله

في ﴿غَيَّبَتِ الْجُبُ﴾ وهو أسفله، والغيابة: كل ما غاب عنك، أو غيب شيئاً عنك، والجب: الركية التي لم تطو، فإذا طويت فهي بثر، وسميت جباً؛ لأنها قطعت في الأرض قطعاً^(٣) ﴿يَلْقَوُهَا بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: المارة من المسافرين، فتستريحوا بهذا، ولا حاجة إلى قتله ﴿إِنْ كُنْتُمْ قَتْلَيْنِ﴾ أي: إن كنتم عازمين على ما تقولون^(٤).

قال السعدي: «وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف، فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل^(٥)». قال ابن كثير: «ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه: من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصر فهم الله عنه بمقالة أخيه فيه^(٦)». وقد صدق رحمه الله.

لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار عليهم أخوهم، جاؤوا إلى أبيهم وطلبوا منه أن يرسله معهم، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم، وأن يلعب وينسبط، وقد أضمرُوا له ما الله به عليم^(٧).

وليس مراد أولاد يعقوب الضلال في الدين؛ إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفاراً، وإنما مرادهم أن أباهم - في زعمهم - في ذهابٍ عن وجه التدبير، في إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه؛ ولأن العشرة أكثر نفعاً له^(١).

ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرضٍ لا يرجع منها؛ ليخلو لهم وجه أبيهم أي: لستمحض محبته لهم.

قالوا: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩].

أي: تتوبون إلى الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم، فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهياً لفعله^(٢).

فلما تماأوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَّةَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ قَتْلَيْنِ﴾ [يوسف: ١٠].

أي: يقول أحد إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإن قتله أعظم إثماً وأشنع، والمقصود يحصل بإبعاده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى إبعاده بأن تلقوه وأشار عليهم بأن يلقيه

(٣) انظر زاد المسير، ابن الجوزي ٤١٦/٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣٢/٩.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١١/٢.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١١/٢.

(٧) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٣.

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣١/٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٢٠٣/٢.

(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٢، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.

﴿إِنَّا إِذَا لَحْزِمُونَ﴾ [يوسف: ١٤].

يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا وغلبنا عليه، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة إنا إذا لعاجزون هالكون، لا خير فينا ولا نفع يرجى منا^(٣).

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم الموانع، سمح حينئذ بإرساله معهم، فذهبوا به وبلغوا المكان الذي فيه الجب ونفذوا مهمتهم وألقوه في البئر، ولكن الله تعالى لطف به حيث حفظه من الضرر فلم يصطدم بجدرانها فيهلك أو يغرق في مائها فيموت، بل إن الله أمّنه من الخوف حيث أوحى إليه في تلك الحال الحرجة تطييباً لقلبه، وتثبيتاً له وبشره «أنه لا بد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز، وهم محتاجون إليك خائفون منك»^(٤).

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ﴾ [يوسف: ١٥].

أي: في قعره.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ وفي المراد بالوحي

﴿قَالُوا يَتَابَنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ

لَنَصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١].

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأمنه الذي يحبه أبوه له ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب﴾ [يوسف: ١٢].

أي: يتنزه في البرية ويستأنس.

﴿وَأِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]

أي: سنراعيه ونحفظه من أذى يريده.

فأجابهم والدهم ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣].

يقول لهم: إن مجرد ذهابكم به يحزني ويشق علي؛ لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله ومانع ثان وهو أنني ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أي: في حال غفلتكم عنه وانشغالكم في لعبكم، لأنه صغير لا يمتنع من الذئب^(١).

«وإنما ذكر يعقوب عليه السلام أن ذهابهم به يحزنه؛ ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به؛ لأن شأن الابن البار أن يتقي ما يحزن أباه، فأبوا إلا المراجعة^(٢). قالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١٢/٢.

(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٤، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣٠/١٢.

قولان^(١):

أحدهما: أنه إلهام.

والثاني: أنه وحي حقيقة.

﴿لَتَنبَيِّنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ أي: لتخبرن

إخوتك بفعلهم هذا الذي فعلوه بك.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وفي المراد بهذه الآية

قولان:

أحدهما: وهم لا يشعرون بإيحاء الله

إليك.

والثاني: وهم لا يشعرون أنك يوسف

وقت إخبارك لهم، وذلك إخباراً بما وقع

بعد سنين مما حكى في هذه السورة^(٢).

وهذا هو الراجح؛ لأن الله جل وعلا

صرح في هذه السورة الكريمة بأنه أنجز

ذلك الوعد في قوله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا

فَعَلْتُمُ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾^(٣)

قَالُوا أَتَأْتِيكَ لَا تَأْتِي يُّوسُفَ قَالَ أَنَا يُّوسُفُ﴾

[يوسف: ٨٩-٩٠].

وصرح بعدم شعورهم بأنه يوسف

في قوله: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُّوسُفَ فَدَخَلُوا

عَلَيْهِ فَعَرَفُوهُ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾^(٤)

[يوسف: ٥٨]^(٣).

فلما ألقوه في البئر ورجعوا عنه، أخذوا

قميصه فلطخوه بشئ من دم، ورجعوا إلى

أبيهم عشاء وهم يكون، ويظهرون الأسف

والجزع على يوسف ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءَ

يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦].

أي: على أخيه؛ ولهذا قال بعض

السلف: لا يغرنك بكاء المتظلم قرب ظالم

وهو باء! وذكر بكاء إخوة يوسف وقد

﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءَ﴾، أي: في ظلمة الليل؛

ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم^(٤).

قالوا: متعذرين بعذر كاذب ﴿يَتَابَانَا إِنَّا

ذَهَبْنَا نَسْتَقِ﴾ [يوسف: ١٧].

إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال.

﴿وَزَكَّنَا يُّوسُفَ عِنْدَ مَتْنَعَا﴾ أي:

ثيابنا وأمتعتنا.

﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ أي: في حال غيبتنا

عنه في استباقنا، وهذا الذي كان قد خاف

منه عليه، لكنهم أخذوا من فمه هذه الكلمة،

وجعلوها عذرهم فيما فعلوه.

﴿وَمَا أَنْتَ بِمُصَدِّقٍ لَنَا﴾ أي بمصدق لنا.

﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي: ولو كنا

عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا ولا

تهتمنا في هذه القضية؛ لشدة محبتك في

يوسف^(٥).

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤١٩/٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٧٥/١٥، زاد

المسير، ابن الجوزي ٤١٩/٢، التحرير

والتنوير ٢٣٤/١٢.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنيطي ٢٠٤/٢.

(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٥.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

١٤٨/٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير

٦١٢/٢.

لما ألقى يوسف عليه السلام في البئر وترك لمصيره، كان من لطف الله به أن جاء بالسيارة إليه كما قال: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف: ١٩].

أي: مسافرون وهم قافلة تريد مصر. ﴿فَازْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ والوارد الذي يرد الماء يستقي للقوم. ﴿فَادَلَّى دَلْوَهُ﴾ أرسل دلوه في البئر ليملاه، والدلو معروف: وهو ما يستخرج به الماء من البئر، فتعلق فيه يوسف فأخرجه واستبشر به.

وقال: ﴿يُبَشِّرُنِي﴾ أي: يا بشراي. ﴿هَذَا عَلَمٌ وَأَسْرُوهُ يَصْنَعُ﴾ أي: وأسره الوردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره (٣).

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: هو عالم بما يفعله إخوته ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه ومع هذا لا يغيره تعالى؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر (٤).

وقال أيضًا: وفي هذا تعريض لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وإعلامه له بأنني عالمٌ بأذى قومك، وأنا قادرٌ على

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥٢/٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١٤/٢.

(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٥.

[يوسف: ١٨] أي: مكذوب مفتعل؛ ولهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب. بل قال لهم معرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨].

أي: زينت لكم أنفسكم أمرًا قبيحًا في التفريق بيني وبينه؛ لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ما دله على ما قال.

﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: فسأصبر صبرًا جميلًا على هذا الأمر الذي قد اتفقت عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه.

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال (١).

قال ابن عاشور: وإنما فوض يعقوب عليه السلام الأمر إلى الله ولم يسع للكشف عن مصير يوسف عليه السلام؛ لأنه علم تعذر ذلك عليه لكبر سنه؛ ولأنه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك. وقد صاروا هم الساعين في البعد بينه وبين يوسف عليه السلام، فأيس من استطاعة الكشف عن يوسف بدونهم، ألا ترى أنه لما وجد منهم فرصة قال لهم: ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسُّوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] (٢).

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١٣/٢، تفسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤٠/١٢.

أَسْتَرْتُهُ مِنْ مَضَرٍ لِأَمْرَانِهِ أَكْثَرِي مَثْوَنَهُ ﴿٢١﴾
[يوسف: ٢١].

ولم يشر القرآن إلى رجوع إخوة يوسف مرة أخرى إلى البشر.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن الضمير في ﴿وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً﴾ وفي ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائد على إخوة يوسف، وأنهم لما استشعروا بأخذ السيارة له لحقوهم، وقالوا هذا غلامنا أبق منا ﴿وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً﴾ يعني: أن إخوة يوسف أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أحاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: باعه إخوته للسيارة بثمانٍ دونٍ قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا؛ لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه. واختار هذا القول ابن كثير والطبري والسعدي وغيرهم (٤).

وقد خاض بعض المفسرين في عدد هذه الدراهم، لكنه لا طائل من وراء ذلك، قال ابن جرير الطبري: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنهم باعوه بدرهم معدودة ولم يحد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦١٤، جامع البيان، الطبري ١٦/١٦، تفسير الكرمي الرحمن، ص ٣٩٥.

الإنكار عليهم، ولكنني سأملئ لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته (١).

﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي: باعه السيارة.

﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: قليل ناقص.

فسره بقوله: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] أي: ممن يرغب عما في يده فيبيعه بأقل ثمن؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بما باعه؛ ولأنهم خافوا أن يظهر له مستحق فينزعه من يدهم؛ ولذلك باعوه بأوكس الأثمان (٢).

هذا هو القول الأول في هذه الآية وأن الذين شروه -بمعنى باعوه- بمصرهم السيارة وأن إخوته ألقوه وانصرفوا، وهو اختيار أبي حيان والشوكاني وابن عاشور وغيرهم (٣).

وهو الظاهر؛ لدلالة ظاهر السياق عليه؛ حيث إن الله ذكر ذلك بعد ذكره لرجوع إخوة يوسف إلى أبيهم، ثم ذكر بعدهم مجيء السيارة، وبعده قال: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ ثم بين من اشتراه منهم فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦١٤.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/٢٥٤، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/٤٣٤.

(٣) انظر البحر المحيط، أبو حيان ٦/٢٥٣، فتح القدير، الشوكاني ٣/١٦، التحرير والتنوير ١٢/٢٤٤.

منه.

وفي معناها قولان:

أحدهما: أنتم شرُّ صنيعةٍ من يوسف لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم. والثاني: شرُّ منزلة عند الله ^(٤).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها ^(٥).
٦. عفوهم عنهم.

ضرب يوسف عليه السلام أروع الأمثلة في العفو والصفح حتى صار مثلاً يحتذى به وذلك حين عفا عن إخوته وسامحهم، بالرغم من ما قاموا به تجاهه، وقد كان في موقف قوة وكان قادراً على الانتقام لكنه لم يفعل.

لما صار يوسف عليه السلام في الملك وعلى خزائن الأرض، وجاء إخوته يطلبون الميرة وعرفهم بنفسه، قالوا مندهشين متعجبين - وقد ترددوا إليه مراراً عديدة وهم لا يعرفون أنه هو- ﴿أَوَنتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصِيرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

يعني: أنا يوسف الذي صنعت مع ما صنعت، وسلف من أمركم فيه ما فرطتم. وقوله: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ تأكيد لما قال،

كتاب ولا خبر من الرسول صلى الله عليه وسلم وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل به دخول ضر فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرض، وما عداه فموضوعٌ عنا تكلف علمه ^(١).
٥. اتهمهم له بالسرقة.

ومما نال يوسف أيضاً من إخوته اتهمهم له بالسرقة زوراً وبهتاناً، حين قالوا لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع أخيه: ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريباً منه ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ بَنِى إِسْرَءِيلَ﴾. يعنون: يوسف عليه السلام، وهذا مجرد اتهام، قال الحسن: كذبوا عليه فيما نسبوه إليه ^(٢).

وقال الشوكاني: «فما هذه الكذبة بأول كذباتهم» ^(٣).

وفي هذا من الغض عليهما ما فيه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسر الأمر في نفسه.

﴿وَقَالَ﴾ في نفسه: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ حيث ذممتونا بما أنتم على أشر

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/١٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/٤٦٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/٤٦٠.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/٥٤.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/٤٦٠.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢.

وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين^(٣).

ولم يكتف بذلك بل قام بإيوائهم هم وجميع أفراد الأسرة حيث أمرهم أن يأتوا بأهلهم أجمعين، فلما دخلوا عليه وحيوه بالسجود خاطبهم بأسلوب تجنب فيه أي عبارة تجرح مشاعرهم؛ مما يدل على صدر كبير، وأن عفوه لم يكن باللسان فقط بل كان باللسان والجنان والفعال؛ حيث قال ﴿يَتَابَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: ١٠٠].

يقول السعدي رحمه الله: وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الحب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي، فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: «أحسن بكم» بل قال: ﴿أَحْسَنَ بِي﴾ جعل الإحسان عائداً إليه، ثم قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فلم يقل: «نزغ الشيطان إخوتي» بل كان الذنب والجهل، صدر من الطرفين^(٤).

وتنبية على ما كانوا أضمرُوا لهما من الحسد، وعملوا في أمرهما من الاحتيال.

ولهذا قال: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: بإحسانه إلينا وجمعه بيننا بعد التفرقة وإيوائه لنا، وذلك بسبب الصبر والتقوى. ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي: يتق فعل ما حرم الله ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامثالها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً^(١).

لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة، فلهذا شعروا بالحرج واللوم وقالوا معترفين له بالفضل: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ اللَّهُ لَقَدْ عَلَّمُنَا لَخَطَوَاتِكِ﴾ [يوسف: ٩١].

يقسمون له بأن الله فضلك علينا وأعطاك ما لم يعطنا، ونحن كنا خاطئين في إساءتنا إليك وما قمنا به تجاهك، فعفا عنهم وسامحهم ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

يقول: لا تأنيب عليكم اليوم ولا عتب عليكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا، ثم زادهم على ذلك بأن دعا لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]^(٢).

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٨، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.
(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٤.
(٤) المصدر السابق، ص ٣٤٩.

يوسف عليه السلام وامرأة العزيز

أولاً: قصة مجيئه إلى مصر:

لما تأمر إخوة يوسف عليه وألقوه في البئر جاءت سيارة- أي: مسافرون- فأخرجوه منها وأخذوه معهم، فلما وصلوا بلاد مصر باعوه بثمان زهيد، كما قال تعالى ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

وكان من لطف الله تعالى به أنه لم يقع في يد رجل من عامة الناس يهينه ويتعبه بالخدمة، بل هبأ الله له أن يشتريه عزيز مصر وأن ينشأ في قصره عزيزاً مكرماً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١].

أي: أحسني إليه، وأكرمي موضع إقامته^(١).

﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ أي: يكفينا بعض المهمات إذا بلغ.

﴿أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا﴾ أي: نتبناه؛ ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد^(٢).

«وإنما قال ذلك لحسن تفرسه في ملامح

يوسف عليه السلام المؤذنة بالكمال^(٣). قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١].

يقول عز وجل: وكما أنقذنا يوسف من أيدي إخوانه وقد هموا بقتله وأخرجناه من الحب بعد أن ألقى فيه كذلك مكنا له في الأرض، أي: عطفنا عليه قلب الملك الذي اشتراه حتى تمكن من الأمر والنهي في البلد وصار على خزائنها^(٤).

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ تأويل الرؤيا وغيره.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ﴾ يفعل ما يشاء لا يغلبه شيء ولا يرد عليه حكمه راداً.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن الأمر كذلك، إذ لو علموا لفوضوا أمرهم إليه وتوكلوا عليه ولم يحاولوا معصيته بالخروج عن طاعته^(٥).

وبقي يوسف عليه السلام هناك حتى بلغ أشده كما قال تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ [يوسف: ٢٢] أي: كمال قوته البدنية والعقلية^(٦).

﴿إِنَّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ قيل: النبوة، أو الحكم

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/٢٤٦.

(٤) انظر جامع البيان، الطبري ١٥/٢٠.

(٥) انظر معالم التنزيل، البغوي ٢/٤٨٣، قصص

الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٨، أيسر التفاسير،

الجزائري ٢/٦٠٣.

(٦) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/٦٠١.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/١٨، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/٦٠١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/١٦٠، جامع البيان، الطبري ١٥/١٩، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٥.

بين الناس، أو الإصابة في القول.

﴿وَعِلْمًا﴾ قيل: الفقه. وقيل: علم الرؤيا^(١) وقد آتاه الله ذلك كله من النبوة والحكمة والعلم.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وكما جزيت يوسف فأتيته بطاعته إياي الحكم والعلم، ومكته في الأرض، واستنقذته من أيدي إخوته الذين أرادوا قتله، كذلك نجزي من أحسن في عمله، فأطاعني في أمري، وانتهى عما نهيته عنه من معاصي^(٢).

ثانيًا: قصة المراودة:

من أعظم الفتن والمحن التي مر بها يوسف عليه السلام فتنة المرأة، وهي من الفتن التي لا يقوى على دفعها إلا الأقوياء من أهل الإيمان والمروءات.

قال السعدي: «هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً؛ لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاهة التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها طائعا أو كارها»^(٣).

وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرماً في بيت العزيز، حتى بلغ أشده، وقد كان في غاية الجمال ففتنت به امرأة العزيز فتنة شديدة وهمت بفعل الفاحشة معه وروادته عن نفسه وأخذت بكل الأسباب ولكن الله عصمه.

يقول تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَرْءُ وَفِ يَتِيهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: ٢٣].

أي: حاولته على نفسه، ودعته إليها «وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين»^(٤)، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هلم وأقبل وتعال، فامتنع من ذلك أشد الامتناع. و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله وأستجير به من فعل هذا القبيح الذي دعوتني إليه؛ لأنه مما يسخط الله ويبعد منه؛ ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مشواي.

﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ يعني زوجها صاحب المنزل بمعنى سيدي، وكانوا يطلقون «الرب» على السيد والكبير، أي: إن بعلك أحسن إلي وأكرم مقامي عنده واثممني، فلا يليق بي أن أقابله بالفاحشة في أهله، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح، ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٢٥.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٦٢.

[يوسف: ٢٣] (١).

والمنصب والشباب، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه، وتهيات له وتصنعت، ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهي مع هذا كله امرأة الوزير، وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شابٌ بديع الجمال والبهاء، إلا أنه نبيٌّ من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه عن مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء، السبعة الأتقياء، المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسما: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم: (ورجلٌ دعت امرأة ذات منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله) (٥).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَيْهٍ﴾ [يوسف: ٢٤] أي: عزمت عليه في أن يواقعها يوسف.

﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، ولكن لأنه رأى برهان ربه فلم يقع منه هم أصلاً، أو أن المراد بهم يوسف بها خاطرٌ قلبي صرفه عنه وازع التقوى (٦).

والبرهان الذي رآه يوسف هو ما آتاه الله

«أشار إلى أن إجابتها لما راودته ظلم؛ لأن فيها ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصية مما اتفقت الأديان على أنها كبيرة، وظلم سيده الذي آمنه على بيته وأمنها على نفسها» (٢).

فمع أنه غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد ولا إحساس بشر، ومع أنها ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَثْوَابَ﴾ وصار المحل خالياً، وهما آمنان من دخول أحد عليهما، وقد دعت هي إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، ومع هذا فهو غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيده، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عذب، لكنه امتنع وصبر عن معصية الله مع وجود الداعي القوي فيه (٣).

وللحافظ ابن كثير كلام متين في التعليق على هذه الآية حيث يقول (٤): «يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال والمال

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٦٠، كتاب صلاة الجماعة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، ومسلم في صحيحه، رقم ١٠٣١، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة.
(٦) انظر أضواء البيان، الشنيطي ٢/ ٢٠٧.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٦٣، ١٦٥، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٥٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.
(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٠.

تعالى من العلم الدال على تحريم ما حرمه الله^(١).

وقد قيلت في ذلك البرهان أقوال كثيرة «ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى»^(٢).

والرؤية هنا علمية؛ لأن البرهان من المعاني التي لا ترى بالبصر^(٣).

ولذلك أخبر الله تعالى عن عصمته له عن الفاحشة وأثنى عليه فقال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

أي: كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذي اصطفاهم الله واجتباهم^(٤).

وقد قرئت (المخلصين) بقراءتين متواترتين: فقرئت بكسر اللام، وتأويلها: الذين أخلصوا طاعة الله.

وقرئت بفتح اللام، وتأويلها: الذين أخلصهم الله لرسالته، وقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين، لأنه كان مخلصاً في طاعة الله تعالى، مستخلصاً

لرسالة الله تعالى^(٥).

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة ذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص من الفتنة، فبادرت إليه ولحقته في أثناء ذلك، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه من دبر، يعني: شقته من خلف لا من قدام؛ لأن يوسف كان هو الهارب وكانت هي الطالبة.

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥] أي: من ورائه.

فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ أي: وجدا زوجها لدى الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متصلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أي: فاحشة، ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يحبس، أو يعذاب عذاباً مؤلماً بالضرب ونحوه^(٦).

فدافع يوسف عليه السلام عن نفسه ونفى التهمة عنه وقال: ﴿هِيَ زَوَدَنِي عَنْ نَفْسِي﴾، فمن الله في تلك اللحظة تبرئة لنييه

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢٥٧/٦،

تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١٦/٢،

جامع البيان، الطبري ٤٩/١٦.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥٢/١٢.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١٨/٢.

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

١٧٠/٩.

(٦) انظر جامع البيان، الطبري ٥٠/١٦، تفسير

القرآن العظيم، ابن كثير ٦١٨/٢، تيسير

الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.

ابن مريم^(٤).

جاء الشاهد بقرينة من وجدت معه فهو الصادق، فقال: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قَبْلِ﴾ أي: من قدامه ﴿فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها المراد لها، وأنها أرادت أن تدفعه عنها فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣٧) لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب، وكذلك كان.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٨].

عرف زوجها بذلك صدق يوسف وبراءته، وأنها هي الكاذبة فيما قذفته ورمته به.

فلما تحقق من ذلك ﴿قَالَ إِنَّهُمْ كَيِّدُونَ﴾ أي: إن هذا البهت الذي رميت به هذا الشاب هو من جملة كيدكن، والكيد: المكر والحيلة^(٥).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٨٢١، والطبراني في المعجم الكبير، رقم ١٢٢٧٩، والطبري في تفسيره، ٥٤/١٦ وغيرهم من طريق عطاء بن السائب. قال ابن كثير في تفسيره ٢٤/٣: إسناد لا بأس به.

وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند ٢٥٣/٣.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧٥/٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير

بشاهد من أهل بيتها يشهد بقرينة من وجدت معه فهو الصادق.

قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي: من قرابتها، أو من من خاصة الملك، وسمي الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من التثبت والتأمل^(١).

وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير، على قولين لعلماء السلف^(٢): القول الأول: أنه كان رجلاً لا صبياً في المهد: قال أبو جعفر النحاس: «والأشبه بالمعنى - والله أعلم - أن يكون رجلاً عاقلاً حكيماً شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة، ولو كان طفلاً لكانت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم تغني عن أن يأتي بدليل من العادة، لأن كلام الطفل آية معجزة، فكادت أوضح من الاستدلال بالعادة، وليس هذا بمخالف للحديث (تكلم أربعة وهم صغار) منهم صاحب يوسف، يكون المعنى: صغيراً ليس بشيخ»^(٣).

القول الثاني: أنه كان صبياً في المهد؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢٣/٣.

(٢) انظر زاد المسير، ابن الجوزي ٤٣٣/٢، أضواء البيان، الشنقيطي ٢١٧/٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧٤/٩.

﴿إِنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيمٌ﴾؛ لعظم فتتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن. وهل أعظم من هذا الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام^(١).

ثم إن سيدها لما تحقق الأمر قال ليوسف عليه السلام آمراً له بكتمان ما وقع: ﴿يُؤَسِّفْ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩].

أي: اترك الكلام في هذا الأمر واضرب عنه صفحاً، فلا تذكره لأحد؛ لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن.

ثم قال لامراته ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لَذَنبِكِ﴾ [يوسف: ٢٩]. أي: من هذا الذي وقع منك، ﴿إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ «ولم يقل من الخاطئات تغليلاً للمذكر، والمعنى: من القوم الخاطئين، مثل: ﴿إِنَّمَا كُنْتَ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣]. ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [التحریم: ١٢]»^(٢).

فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة، وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك

له في ذلك كحال كثير من المشركين^(٣). انتشر الخبر وشاع في المدينة، وتحدث به النسوة فجعلن يلمنها على ما أقدمت عليه كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٣٠].

أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها، هذا أمر مستقبح، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغاً عظيماً!!

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، أو هو غلافه فدخل تحته حتى غلب على قلبها، وهذا أعظم ما يكون من الحب.

ولهذا قلن: ﴿إِنَّا لَنَرِيهَا فِي صُكْلٍ مُبِينٍ﴾ أي: قلن: إنا لنرى امرأة العزيز في مراودتها فتاها عن نفسه وغلبة حبه عليها لفي خطأ من الفعل وجور عن قصد السبيل^(٤).

وقيل: كان هذا القول منهن مكرراً ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز، ولهذا سماه مكرراً، فقال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ

٦١٩/٢، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢١.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

١٧٥/٩، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧٥/٩.

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٢،

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١٩/٢.

(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٣،

تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.

إِلَيْهِنَّ ﴿يوسف: ٣١﴾.

الإعجاب بيوسف والانبهار به تقوى موقف امرأة العزيز فأقرت بمرادوته أمامهن، وازدادت إصراراً على يوسف عليه السلام وهددته بالسجن والصغار إن لم يقبل، وتمالأ معها النسوة عليه وأشرن عليه بطاعتها ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوْدْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فِاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]. أي: امتنع، ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامَرُهُ لِيَسْجَنَ وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ تقول: لئن لم يطاوعني على ما أدعوه إليه ليحبسن وليكونا من أهل الصغار والذلة^(٣).

فعند ذلك أبى أشد الإباء، واستعاذ من شرهن وكيدهن، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]. أي قال: يا رب، الحبس في السجن أحب إلي مما يدعونني إليه من معصيتك ويراودني عليه من الفاحشة^(٤).

«وهذا يدل على أن النسوة جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته، فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد»^(٥).

قال: ﴿وَالْأَنْصَرَفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أي: تعصمني من المعصية ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي:

أي: لما سمعت بتشنيعهن عليها أحببت أن تبسط عذرها عندهن وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن، ولتوقعهن فيما وقعت فيه. فأرسلت إليهن فجمعتن في منزلها، ﴿وَأَعَدَّتْ لهنَّ مَجْلِسًا لِلطَّعَامِ، وَمَا يَتَكَنَّنَ عَلَيْهِ مِنَ النَّمَارِقِ وَالْوَسَائِدِ، وَكَانَ فِي جَمَلَةٍ مَا أَتَتْ بِهِ وَأَحْضَرْتَهُ فِي تِلْكَ الضِّيَافَةِ طَعَامٌ يَحْتَاجُ أَنْ يَقْطَعَ بِالسَّكَاكِينِ كَالْأَتْرِجِ وَنَحْوِهِ، ﴿وَوَآتَتْ كُلَّ رَحْضَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: وأمرته بالخروج عليهن في تلك الحال، فخرج وهو في غاية الجمال وقد أعطي شطر الحسن^(١).

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أي: فلما رأيته أعظمته وأجللته وهبته، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرون بالجراح.

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذ الله ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾^(٢).

فلما حصل من النسوة ما حصل من

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٤، جامع البيان، الطبري ٨٦/١٦.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٨٦/١٦.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.

(١) انظر جامع البيان، الطبري ٦٨/١٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١٩/٢، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.

(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٤.

من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفاً من الله ورجاء ثوابه» (٣).

ولما اشتهر ال وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح قرر العزيز ومن معه سجنه عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ﴾ [يوسف: ٣٥]. أي: ظهر لهم من الرأي ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ﴾ وهي الأدلة الدالة على براءته ﴿لَيْسَ جُنُودَهُ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ﴾ أي: إلى مدة؛ وذلك لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدت أسبابه نسي، فأروا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن؛ وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلماً وعدواناً، وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به؛ فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم (٤).

ويعد مدة قضاها في السجن يقدر الله تعالى رؤيا منامية يراها الملك ويعجز الجميع عن تعبيرها إلا يوسف عليه السلام، فلما عبرها أعجب به الملك وأمر بإخراجه من السجن، فامتنع يوسف عليه السلام عن الخروج حتى تتبين براءته التامة مما نسب إليه، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْكَلْبُ اتَّقُونِي يَدُ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ [يوسف: ٥٠]. أي:

أمل إليهن، ﴿وَإِنَّ﴾ إن صبوت إليهن ﴿مِنْ الْجَنَّةِ﴾ من الذين جهلوا حقك وخالفوا أمرك ونهيك (١).

فاستجاب له دعاءه ولطف به وعصمه عن الوقوع في الزنى، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

أي: ﴿السَّمِيعُ﴾ لدعاء يوسف حين دعاه بصرف كيد النسوة عنه، ودعاء كل داع من خلقه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمطلبه وحاجته، وما يصلحه، ويحاجة جميع خلقه وما يصلحهم (٢).

ثالثاً: براءته ونفي التهمة عنه:

لما تما لا النسوة على يوسف عليه السلام وأمرنه بطاعة امرأة العزيز لجأ إلى الله في دفع السوء عنه وفضل السجن على المعصية في موقف يدل على عفة عظيمة ونفس كبيرة ومعدن أصيل: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

قال ابن كثير: «وهذا في غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨٩/١٦، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩٠/١٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٠.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٦.

ثم قالت: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢].

تقول: إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أنني لم أخنه في نفس الأمر، وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة^(٣).

قيل: ويحتمل أن مرادها بذلك يوسف عليه السلام، والمعنى: ليعلم يوسف أنني لم أخنه في غيبته بالكذب عليه^(٤).

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ فإن كل خائن لا بد أن تعود خيائته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

﴿وَمَا أَبرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥١]. أي: ما شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَاودَتْهُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني: يوم الضيافة، فهل رأيتن منه ما يريب؟ فلما سئلن عن ذلك برأته، و﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: لا قليل ولا كثير، يقلن: حاش لله أن يكون يوسف متهما، والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر وتبين ووضح، والحق أحق أن يتبع ﴿أَنَا رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُنَادِرِينَ﴾ أي: فيما قاله من تبرئة نفسه ونسبة المراودة إليها^(٥).

تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى؛ ولهذا راودته لأنها أماراة بالسوء، ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾ أي: إلا من عصمه الله تعالى، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: غفور لمن تاب وأتاب، ﴿رَجِمَ﴾ بقبول توبته وتوفيقه للأعمال الصالحة^(٦).

هذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر^(٦).

رسول الملك ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ يعني الملك، ﴿فَسَقَلَهُ مَا بَالَ الْإِسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: أسأله ما شأنهن وقصتهن، ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْكُيْهِنَّ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: إن الله تعالى ذكره ذو علم بكيدهن، لا يخفى عليه ذلك كله. وقيل: إن معنى ذلك: إن سيدي العزيز زوج المرأة التي راودتني عن نفسي ذو علم ببرائتي مما اقترفتني به من السوء^(١).

فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسائته، فدعا الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن وامرأة العزيز فقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ [يوسف: ٥١]. أي: ما شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَاودَتْهُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني: يوم الضيافة، فهل رأيتن منه ما يريب؟ فلما سئلن عن ذلك برأته، و﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: لا قليل ولا كثير، يقلن: حاش لله أن يكون يوسف متهما، والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر وتبين ووضح، والحق أحق أن يتبع ﴿أَنَا رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُنَادِرِينَ﴾ أي: فيما قاله من تبرئة نفسه ونسبة المراودة إليها^(٢).

(١) انظر جامع البيان، الطبري ١٦/١٣٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦٢٠.

(٢) انظر جامع البيان، الطبري ١٦/١٣٨، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٤، فتح القدير، الشوكاني ٣/٤١.

(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٤.

(٤) زاد المسير ٢/٤٤٨.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦٢٦.

(٦) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٠.

قال الحافظ ابن كثير: وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام^(١).

أما القول بأن هذا من كلام يوسف عليه السلام فإن السياق يأباه لعدة أمور:

أولها: أن الكلام لا يزال في سياق كلام امرأة العزيز.

وثانيها: أن يوسف عليه السلام لا يزال في السجن لم يخرج منه بعد كما يفيد السياق إذ قال بعد هذا ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَنِي﴾ [يوسف: ٥٤].

وثالثها: أن المقام مقام براءة له وقد ظهرت براءته وحصل مطلوبه فليس مناسبا أن يقول ﴿وَمَا أَتَرَى نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٣]، ولكل مقام مقال.

ويمكن إجمال بطلان ما يخالف براءته في ثلاثة محاور:

١. بطلان الإسرائيليات الواردة في ذلك.

لقد جاءت عدد من الروايات تصف يوسف عليه السلام بأنه عزم على فعل الفاحشة حتى جلس من المرأة مجلس الرجل من المرأة لولا أمور رآها صرفته عن ذلك، وهذه من الإسرائيليات لا يلتفت إليها؛ لأنها ليس فيها خبر واحد صحيح عن نبينا المعصوم صلى الله عليه وسلم، ولأنها لا تليق بمقام الأنبياء، ولأنه لو وصل إلى هذه

الدرجة لما أثنى الله عليه كل هذا الثناء. قال الحافظ ابن كثير: وأكثر أقوال المفسرين هاهنا متلقى من كتب أهل الكتاب، فالإعراض عنه أولى بنا، والذي يجب أن يعتقد: أن الله تعالى عصمه وبرأه، ونزّهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]^(٢).

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: والآثار الواردة في ذلك على قسمين: قسم لم يثبت نقله عن نقل عنه بسند صحيح، وهذا لا إشكال في سقوطه. وقسم ثبت عن بعض من ذكر ولكنه ملق من الإسرائيليات، ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز التجرؤ على القول في نبي الله يوسف اعتمادا على مثل هذه الروايات^(٣).

٢. دلائل وشواهد براءته.

منها:

• أن الله تعالى قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوء ولا

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢١.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢١٤، بإيجاز.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٦.

فحشاء^(١).

❁ ما قاله الشنقيطي في أضواء البيان^(٢):

«إن القرآن العظيم بين براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي حيث بين شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به. أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم: يوسف، والمرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود. أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]. وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ النَّجِّنْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]. وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها: ﴿الْفَن حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُنَادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]. وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦]. وأما قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦]. وأما

شهادة الله جل وعلا ببراءته ففي قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٨٢] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [٨٣] [ص: ٨٢-٨٣]، فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ولا شك أن يوسف من المخلصين كما صرح تعالى به في قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. فظهرت دلالة القرآن من جهات متعددة على براءته مما لا ينبغي».

٣. معنى الهم الوارد في الآية.

الآية هي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَبْتَغُونَ لَهَا مَا يَبْتَغُونَ رَبَّيْهِ﴾ [يوسف: ٢٤].

ولأهل العلم في المعنى المراد بالهم قولان معتبران:

الأول: أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم أصلاً، بل هو منفي عنه لوجود البرهان. وهو اختيار أبي حيان^(٣).

قال الشنقيطي: هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية؛ لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه، كقوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/٢٩٦.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/٢٠٧.

(٣) انظر البحر المحيط، أبو حيان ٦/٢٥٨.

إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿يونس: ٨٤﴾.

أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه.

وكقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

أي: إن كنتم صادقين فهااتوا برهانكم، وعلى هذا القول: فمعنى الآية: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ

لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾

[القصص: ١٠].

أي: لولا أن ربنا على قلبها لكادت تبدي به ^(١).

وهذا القول هو الذي يترجح عندي؛ لأن ظاهر السياق يؤيده، والثناء الوارد من الله في حق يوسف يؤكد.

القول الثاني: أن المراد بهم بهما بـها خطرات حديث النفس التي لا يؤاخذ العبد عليها، بل يؤجر العبد على تركها؛ لأنه تركها خوفاً من الله تعالى، كما في الحديث: (ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة) ^(٢).

وكما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٤٩١، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو سيئة، ومسلم في صحيحه، رقم ١٣١، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب، من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما.

وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ

﴿٤١﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

فكان يوسف عليه السلام ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ^(٣).

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٩٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٧.

وقال ﴿فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ يَقْضَىٰ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

والبضع: هو ما بين الثلاث إلى التسع (٢)، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين (٣)، والله أعلم.

المهم أن يوسف عليه السلام مكث في السجن عدة سنوات، والسجن ليوم واحد صعب فكيف بسنين!

ومع أنه سجن ظلمًا، ومكث في السجن عدة سنين لكنه ظل صابرًا ثابتًا على مبدئه حتى عندما طلب منه الخروج من السجن من قبل الملك امتنع عن الخروج وتأنى حتى ثبتت براءته، وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وصبره، كما في الحديث: (لو لبث في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي) (٤).

وعرف يوسف عليه السلام بين السجناء بحسن التعامل حتى صاروا يقولون: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

ويخاطبونه بقولهم: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

قال الحافظ ابن كثير: «كان يوسف،

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨، مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

(٤) سبق تخريجه.

وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٢٥/٢.

يوسف عليه السلام في السجن

أولاً: سبب دخوله السجن:

لم يقترب يوسف عليه السلام جرماً يستحق أن يسجن بسببه بل سجن ظلماً وعدواناً؛ وذلك أن امرأة العزيز لما راودته عن نفسه فأبى هددته بالسجن إن لم يوافق عل طلبها ويرضى باقتراف الفاحشة، فاختار السجن على فعل الفاحشة؛ فقرروا سجنه عليه السلام، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُمْ فَكَفَىٰ بِهِمْ﴾ [يوسف: ٣٥].

أي: إلى مدة؛ كتماناً للقصة ألا تشيع في العامة، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلماً وعدواناً، وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به؛ فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم (١).

وفي هذا دلالة على أنه ليس كل من سجن فهو متهم، بل قد يسجن البريء ظلماً وعدواناً كما حصل ليوسف عليه السلام.

ثانياً: حاله في السجن:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُمْ فَكَفَىٰ بِهِمْ﴾ [يوسف: ٣٥]. أي: إلى مدة.

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨٦/٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦٨/١٢.

فرصة فانتهازها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولاً أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه^(٣).

فقال: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِيهِ إِلَّا بَنَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧]. يقول لهما: إنَّ هذا من تعليم الله إياي، لأنني مؤمنٌ به موحدٌ له.

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يقول: إني برئت من ملة من لا يصدق بالله، ويقر بوحدانيته.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ يقول: وهم مع تركهم الإيمان بوحدانية الله، لا يقرون بالمعاد والبعث، ولا بثواب ولا عقاب.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي لِإِثْرِهِمْ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ﴾ يقول: هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين فإنه يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله

عليه السلام، قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث، وحسن السمات وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم^(١).

ولما أوصى السجين أن يذكره عند الملك فنسي، ثم عاد ليسأله عن تعبير رؤيا الملك بعد بضع سنين عبرها له يوسف عليه السلام، من غير تعنيفٍ له في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراطٍ للخروج قبل ذلك^(٢).

وعرف يوسف عليه السلام في السجن، بتعبير الرؤى وجرى له في ذلك موقفان سجلهما القرآن: الأول: تعبيره لرؤيا الفتيتين الذين كانا معه في السجن.

والثاني: تعبيره لرؤيا الملك، وقد مضى تفصيل ما يتعلق بهاتين الحادثتين في مبحث يوسف وتعبير الرؤى.

وقد مارس يوسف عليه السلام الدعوة إلى الله وهو داخل السجن وذلك أنه لما دخل السجن، دخل معه السجن فتيان «ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظنَّ الحسن وقالاه: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾» [يوسف: ٣٦].

وأتياه ليعبر لهما رؤياهما؛ رأى ذلك

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢١.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٢٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٠.

تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أهلك ﴿خَيْرُ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الذي له صفات الكمال، ﴿الْوَحْدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك. ﴿الْقَهَّارُ﴾ الذي انتقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفه خير من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء، لا كمال لها ولا أفعال لديها.

ولهذا قال: ﴿مَا تَقْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَتَيَبِثُونَهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة، إنما هو جهل منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله.

ولهذا قال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: حجة ولا برهان، بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها؛ لأن الحكم لله وحده، فهو الذي يأمر وينهى، ويشعر الشرائع، ويسن الأحكام.

﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه، ﴿أَمْرَ الْأَقْبَدُوا إِلَّا آيَاتِهِ﴾ أي: وحده لا شريك له، ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْتُمْ﴾ أي: المستقيم، يقول: هذا الذي أدعوكم إليه

إمامًا يقتدى به في الخير، وداعيًا إلى سبيل الرشاد^(١).

﴿مَا كَانَتْ لَنَا﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق بنا ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ بل نفرد الله بالتوحيد، ونخلص له الدين والعبادة، ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٣٨]. أي: بأن هدانا لهذا، ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ بأن أرسلنا إليهم دعاءً إلى توحيدهم وطاعته، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]^(٢).

ثم صرح لهما بالدعوة، فدعاهما إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل، وصغر أمر الاوثان وحقرها، وضعف أمرها فقال: ﴿يَصْدَحِي السِّجْنَ﴾ [يوسف: ٣٩]. أي: يا ساكني السجن، «وجعلهما صاحبيه لطول مقامهما فيه، كقولك: أصحاب الجنة، وأصحاب النار»^(٣).

﴿أَرْيَاكَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: أرباب عاجزة ضعيفة لا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٢٢٢، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٦، جامع البيان، الطبري ١٦/١٠١.

(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦٢٢. تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/١٩٢، جامع البيان، الطبري ١٦/١٠٤.

الحجة^(٣)».

ثالثاً: سبب خروجه من السجن:

لما ظن يوسف عليه السلام، نجاة أحد الفتيتين الذين كانا معه في السجن - وهو الساقى - أوصاه بأن يذكر أمره للملك.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

يعني: اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند ربك - أي سيدك: وهو الملك -، لعله يرق لي، فيخرجني مما أنا فيه، فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذلك، وكان من جملة مكاييد الشيطان، لئلا يطلع نبي الله من السجن.

ولهذا قال تعالى: **﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾** أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، أو المعنى: أنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف لربه، أي لسيده، وفيه حذف، أي أنساه الشيطان ذكره لربه، **﴿فَلَيْتَ﴾** يوسف **﴿فِي السِّجْنِ يَضَعُ سِنِينَ﴾** [يوسف: ٤٢]^(٤).

هذا هو الصواب أن الضمير في قوله:

﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائذٌ

من توحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يقول: ولكن أهل الشرك بالله يجهلون ذلك، فلا يعلمون حقيقته؛ لذلك فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره؛ وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها؛ ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك^(١).

وكانت دعوته لهما في هذا الحال في غاية الكمال؛ لأن نفوسهما معظمة له، منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه. ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه، عبر لهما ما رأيا^(٢).

قال السعدي: «يوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا، فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما، فقامت عليهما بذلك

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٧، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦٢٢، ٦٢٣، جامع البيان، الطبري ١٦/١٠٥.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨.

(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨، جامع البيان، الطبري ١٦/١١٥.

العجيبة، التي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به^(٣)، حيث قال: ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ﴾ [يوسف: ٤٣].

ثم سأل قومه عنها فعجزوا جميعاً عن تعبيرها، فعند ذلك أرسل إلى يوسف عليه السلام وهو في السجن فعبرها كأحسن ما يكون التعبير.

هكذا عجزوا عن تعبيرها ليقع تعبيرها من يوسف عليه السلام بعد عجزهم عنها فتكون له المكانة بينهم.

قال الحافظ بن كثير: «هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام، من السجن معزراً مكرماً، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءه وقصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن هذه ﴿أَشْفَقْتُ أَخْلَمِ﴾ [يوسف: ٤٤].

أي: أخلاطٌ اقتضت رؤياك هذه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَمِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤].

(٣) تفسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

على الناجي، وأما القول بأن الضمير عائذٌ على يوسف عليه السلام فقول ضعيف^(١)؛ إذ لا سلطان للشيطان على أنبياء الله وعباده المخلصين كما قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٣].

ويوسف عليه السلام من المخلصين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

وأما ما جاء على لسان بعض الأنبياء من نسبة ما أصابهم إلى الشيطان كقول أيوب عليه السلام: ﴿إِنِّي مَسَى الشَّيْطَانُ بَنِيَّ وَعَذَابٌ﴾ [ص: ٤١].

فإنما هو من باب الأدب مع الله تعالى في عدم نسبة الشر إليه، ثم إن ما ذكره أيوب عليه السلام حتى وإن حمل على ظاهره فهو حديث عن التسبب في الأذى البدني وهو يختلف عن التسلط على القلب واللسان^(٢). والله أعلم.

لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف عليه السلام من السجن، قدر سبباً لإخراجه وارتفاع شأنه وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك، حيث «أرى الله الملك تلك الرؤيا

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢٣٩/٤.

أي: ولو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط، لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها^(١). قال السعدي: وهذا أيضًا من لطف الله بيوسف عليه السلام؛ فإنه لو عبرها ابتداء قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتمًا لها غاية الاهتمام، فعبّر بها يوسف عليه السلام وقعت عندهم موقعًا عظيمًا، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدم، فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله. وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد صلى الله عليه وسلم في القيامة؛ أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمدًا صلى الله عليه وسلم فيقول: «أنا لها أنا لها» فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقام المحمود، الذي يغبطه به الأولون والآخرون.

فسبحان من خفيت ألطافه، ودقت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفياه وأوليائه^(٢).

لما رجعوا إلى الملك بتعبير رؤياه بما

أعجبه عرف فضل يوسف عليه السلام، وكمال علمه، وتمام عقله، فأمر بإحضاره إليه؛ ليكون من جملة خاصته ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا﴾ [يوسف: ٥٠].

فلما جاءه الرسول بذلك، امتنع من الخروج وأحب أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلمًا وعدوانًا، وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه زورًا وبهتانًا^(٣).

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني: الملك، ﴿فَسَتَلَهُ مَا بِآلِ النَّسُوءِ الَّذِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، فجمع الملك النسوة وسألهن فاعترفن جميعًا ببراءته حتى امرأة العزيز.

فلما ظهرت للملك وللناس براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه، ازدادت مكانته في عين الملك فأرسل إليه وأخرجه من السجن، وعزم أن يجعله من خاصته ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا أَسْتَخْلِفُہٗ﴾ [يوسف: ٥٤].

أي: أ جعله من خاصتي وأهل مشورتني، فأتوه به مكرمًا محترمًا، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي: فلما كلم يوسف الملك أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده، ورأى من حسن منطقه ما صدق به الخبر؛ إذ المرء مخبوء تحت لسانه^(٤)، أو

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٤.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٥٥/٣، فتح القدير، الشوكاني ٤٢/٣، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠١.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٢٤/٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

يوسف عليه السلام في الملك

أولاً: توليه الملك:

لما عبر نبي الله يوسف عليه السلام رؤيا الملك عظمت مكانته عند الملك، ولما ظهرت براءة عرضه، ونزاهة ساحته مما نسبوه إليه، ازدادت مكانته عليه السلام في عين الملك أكثر، ولذلك قال: ﴿أَتُتَوَفَّى يَدُكَ أَتُخَلِّصُكَ لِنَفْسِكَ﴾ [يوسف: ٥٤].

أي: أجعله من خاصتي، ومن أكابر دولتي، ومن أعيان حاشيتي. ﴿فَلَمَّا كَلَمَهُ﴾ وسمع مقاله وتبين حاله ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: ذو مكانة وأمانة^(٢).

فهم يوسف عليه السلام من الملك أنه عزم على تصريفه والاستعانة بنظره في الملك، فبادر الملك فـ ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

أي: ولني عليها، وخزائن لفظ عام لجميع ما تختزنه المملكة من طعام ومال وغيره، ﴿إِنِّي حَافِظٌ عَلَيْكَ﴾ أي: حفيظ لما استودعني، عليم بما وليتني^(٣).

وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة^(٤).

فلما كلم الملك يوسف عليه السلام وعرف براءته وعظم أمانته، قال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]. أي: ذو مكانة ومنزلة ﴿أَمِينٌ﴾ أي: مؤتمن على كل شيء^(١).

هكذا خرج يوسف عليه السلام من السجن عزيزاً مكرماً مبرءاً بل ممكناً، وهكذا عاقبة الصبر على البلاء.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤٧/١٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦٢٦، البحر المحيط، أبو حيان ٦/٢٩١.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٤.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/٢٥٦، جامع البيان، الطبري ١٦/١٤٩.

(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٥.

[يوسف: ٥٧] (٣).

وهكذا صار يوسف عليه السلام ملكاً بعد أن كان سجيناً، وقد قال بعضهم (٤):

وراء مضيق الخوف متسع الأمن

وأول مفروح به غاية الحزن

فلا تياسن، فالله ملك يوسفًا

خزائنه بعد الخلاص من السجن

ثانيًا: مجيء إخوته إليه:

لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض، دبرها أحسن تدبير، فلما دخلت السنون المجذبة، وسرى الجذب، حتى وصل إلى فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، أرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة-أي الطعام- إلى مصر.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

أي: لما دخلوا عليه عرفهم؛ لأنه فارقهم وهم رجال، ولم يعرفوه؛ لطول العهد، ومفارقتهم إياهم في سن الحداثة، أو لاعتقادهم أنه قد هلك، ولأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة (٥).

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٦٢٤.

(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٧، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٢٠.

(٥) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٧، والبحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٩٢، وتيسير

فقد «طلب يوسف عليه السلام ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل ورفع الظلم، ودعوة أهل مصر إلى الإيمان» (١).

أما ما ورد من النهي عن طلب الولاية فيستثنى منه من حسن مقصده، وعلم من نفسه الأمانة والكفاءة، وعلم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح (٢).

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ﴾ [يوسف: ٥٦].

أي: بمثل هذه الأسباب والتدابير مكنا ليوسف في أرض مصر يتبوأ منها أي يتزل حيث يشاء يتقلب فيها أخذًا وعطاء وإنشاء وتعميرًا لأنه أصبح وزيرًا مطلق التصرف.

﴿فَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ﴾ أي: من نشاء رحمته من عبادنا، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا وعد من الله تعالى لأهل الإحسان بتوفيتهم أجورهم، ويوسف عليه السلام ممن شاء الله رحمتهم كما هو من أهل الإحسان الذين يوفيههم الله تعالى أجورهم في الدنيا والآخرة، وأخبر تعالى أن أجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون، ترغيبًا في الإيمان والتقوى إذ بهما تنال ولاية الله تعالى عز وجل؛ إذ أولياؤه هم المؤمنون المتقون، ولذلك قال: ﴿وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [٥٧].

(١) فتح القدير ٣/ ٤٢-٤٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢١٥.

بها، ﴿وَقَالَ إِفْيَنِيْهِ﴾ [يوسف: ٦٢]. أي: غلماناه الذين في خدمته: ﴿اجْعَلُوا يَضْعَفْتُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ثم علل فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فإنهم إذا عرفوا ذلك وعلموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمن، وأن ما دفعوه عوضاً عنه قد رجع إليهم، وتفضل به من وصلوا إليه عليهم نشطوا إلى العود إليه، ولا سيما مع ما هم فيه من الجذب الشديد والحاجة إلى الطعام، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع^(٢).

ثم يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم فيقول: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَبَاتَنَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ [يوسف: ٦٣]. أي: بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا، ﴿فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ﴾ وقرأ بعضهم (يكتل) بالياء^(٣): أي يكتل أخونا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا: ﴿وَأِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يعرض له ما يكره، وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَقِ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢].

ولهذا قال لهم: ﴿هَٰذَا مَنُكِّم عَلَيْهِ

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف: ٥٩]. أي: كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخاً عند أبيه، ف﴿قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ أي: إذا قدمتم من العام المقبل فاتوني به معكم، ثم رغبهم في الإتيان به فقال: ﴿الْأَتْرُونَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ في الضيافة والإكرام، وبعد أن رغبهم من أجل أن يأتوه به رهبهم إن لم يفعلوا ذلك فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٦٠].

أي: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية، فليس لكم عندي ميرة، ولا تقربوا داري وبلادي بعد ذلك.

﴿قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْهُ آيَاتُهُ﴾ [يوسف: ٦١]. أي: سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن، دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعاً به لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف، فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم ﴿وَأِنَّا لَفَعْلُونَ﴾ لما أمرتنا به^(١).

ثم أمر فتياه أن يضعوا بضاعتهم - وهي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام - في أمتعتهم من حيث لا يشعرون

الكريم الرحمن، ص ٤٠١.

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٢٨/٢.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤٦/٣، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠١، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٩.

(٣) تحبير التيسير، ابن الجزري، ص ٤١٥.

إِلَّا كَمَا أَمْنَتْكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴿٦٤﴾

[يوسف: ٦٤].

أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغييونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ وقد تقدم منكم التزام، أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق بالله تعالى.

﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ وقرأ بعضهم: ﴿حِفْظًا﴾^(١)، أي: خير حفظاً منكم، فإن حفظه الله سلم وإن لم يحفظه لم يسلم.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم^(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا يَضَعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٦٥]. فلما وجدوها في متاعهم ﴿قَالُوا يَا بَنَاتَآ مَا بَغَىٰ﴾ أي: ماذا نريد؟ وأي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا علي الوجه الحسن؟ ﴿هَذِهِ يَضَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نجلب لهم الطعام ﴿وَنَحْفِظُ أَخَانَا وَتَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦٢٩، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٠، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠١.

بغير ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل على الملك إعطاؤه^(٣).

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب عليه السلام: ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٦٦]. أي: تحلفون بالعهود والمواثيق، ﴿لَنَأْتِيَنَّ بِهِ إِلَّا أَنْ يَخَاطَبَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قبل لكم به، ولا تقدرون على دفعه، ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: شهيد علي وعليكم^(٤).

ولما أرادوا السفر إلى مصر حملته العاطفة الأبوية والرحمة الإيمانية على أن أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من باب واحد، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة، ﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧].

وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء رجل واحد؛ وهذا سبب، وإلا فالأمر كله بيده الله.

ولذلك قال: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضائه؛ فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦٢٩، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، المحيط، أبو حيان ٦/٢٩٦.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦٢٩، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/٦٢٨.

يمانع.

﴿إِن الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ القضاء قضاءؤه، والأمر أمره، فما قضاءه وحكم به لا بد أن يقع، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإنه بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب^(١).

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبُ قَضَىٰهَا﴾ [يوسف: ٦٨].

قالوا: هي دفع إصابة العين لهم، وليس هذا قصوراً في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين.

ولهذا قال عنه: ﴿وَلَنَّا لَذُو عِلْمٍ﴾ أي: لصاحب علم عظيم ﴿لَمَّا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: لتعليمنا إياه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء^(٢).

ثم يذكر تعالى ما كان من أمر إخوة يوسف لما قدموا عليه ومعهم أخوه - شقيقه - وما كان من إيوائه إليه، وإخباره له سرًا عنهم بأنه أخوه، وأمره بكتنم ذلك عنهم، وسلاه عما

كان منهم من الإساءة إليه، فيقول: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يَوْسُفَ أَوْسَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩].

أي: لا تحزن على الأعمال الماضية التي عملوها، فإن العاقبة خير لنا^(٣).

ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم، وذلك أنه لما جهزهم وكال لكل واحد من إخوته، ومن جملةهم أخوه هذا، أمر فتياه بوضع سقايته، في متاع أخيه خفية - من حيث لا يشعر أحد - ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ [يوسف: ٧٠]. وهي الإناء الذي كان يشرب فيه الملك ويكيل به الطعام ﴿فِي رِجْلِ أَخِيهِ﴾. ثم لما تحركت القافلة ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى مناد بينهم قائلاً: ﴿أَبْتِنَهَا الْعِيزُ﴾ أي: يا أهل القافلة، ﴿إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ﴾.

قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا نَفْقَذُون﴾ [يوسف: ٧١]. ولم يقولوا: «ما الذي سرقنا» لجزمهم بأنهم براء من السرقة ﴿قَالُوا نَفْقَذُ صُورَ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٢].

أي: صاعه الذي يكيل به، ﴿وَلَمَن جَاءَهُ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: أجرة له على وجدانه وهذا من باب الجعالة، والبعير هو الجمل

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٠، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، فتح القدير ٥٠/٣.

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٦٢٨/٢، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٠، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٣٠/٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٣٠/٢.

﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي: كفيل، وهذا من باب الضمان والكفالة^(١).

فأقبلوا على من اتهمهم بذلك ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِتُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٧٣]. بجميع أنواع المعاصي، ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ يقولون: أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتونا به من السرقة، فليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: «تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق».

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]. أي: ما عقوبة السارق، إن كان فيكم ووجدناه بينكم.

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ﴾ [يوسف: ٧٥]. أي: الموجود في رحله ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ بأن يملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبت عليه السرقة كان ملكا لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

[يوسف: ٧٥]^(٢).

وهذا هو الذي أراد يوسف، عليه السلام؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي: فتشها قبله، تورية، كما قال الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦].

ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في الحيلة. ﴿ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، ولزاما لهم بما يعتقدونه.

ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا يُوسُفَ﴾ أي: يسرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم.

﴿مَا كَانَ يَلْتَمِذُ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر؛ لأنه ليس من دينه أن يملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فكان قولهم هذا: بمشيئة الله وتدييره، وقد كان يوسف عليه السلام يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿زَفَعُ دَرَجَتَيْنِ مِنْ نَشْأَةٍ﴾ بالعلم النافع وغيره، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ فكل عالم، فوّه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة^(٣).

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣١،

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٠، ٣٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٠.

البرئ، ولم يقل «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب^(٢).

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا بِحَيَاتٍ﴾ [يوسف: ٨٠]. أي: لما يسوا من تخليص أخيه، الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، ﴿خَلَصُوا﴾ أي: انفردوا عن الناس ﴿بِحَيَاتٍ﴾ يتناجون فيما بينهم، ف﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ لتردنه إليه، ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا قَرِطُمْ فِي يَوْسُفَ﴾ [يوسف: ٨٠].

يقول: لقد أخلفتكم عهده، وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله، فلم يبق لي وجه أقابله به ﴿فَلَنْ أَجْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي: لا أزال مقيمًا هاهنا ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في القدوم عليه راضيًا عني، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بأن يمكنني من أخذ أخي، ورده إلى أبي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأن أحكامه لا تجري إلا على ما يوافق الحق، ويطابق الصواب.

ثم أمر إخوانه أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذرًا لهم عنده، حيث قال: ﴿ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا ابْنَاكَ سَرَقَ﴾ [يوسف: ٨١]. أي: أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾

(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٢.

قال ابن كثير: «وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك؛ لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك: من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه»^(١).

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل أخيههم ﴿قَالُوا إِنَّ يَسْرَقَ﴾ [يوسف: ٧٧] هذا الأخ، فليس هذا غريبًا منه، ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون: يوسف عليه السلام، وهذا مجرد اتهام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا، وفي هذا من الغض عليهما ما فيه.

ولهذا قال: ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

أجابهم سرًا لا جهراً، حلمًا وصفحًا وعفوا، فقالوا: ﴿يَتَابَانَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ [يوسف: ٧٨] أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه، ﴿فَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ﴾ أي: بدله، يكون عندك عوضًا عنه، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك.

﴿قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدهُ إِنَّا إِذَا نَظَرْنَا لَهُ لَنَلْمُوتُ﴾ [يوسف: ٧٩] أي: إن أطلقنا المتهم وأخذنا

قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٢.

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٣.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨] أي: من الجذب وضيق الحال وقلة الطعام، ﴿وَجِئْنَا بِضَعَّةٍ مُرَحَّةٍ﴾ أي: رديئة مدفوعة، لا يقبل مثلها منا إلا أن تتجاوز عنا، ﴿فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بقبولها على رداءتها، وقيل يرد أخينا إلينا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي: يثيبهم على إحسانهم ويجزيهم به خيراً^(٣).

فلما رأى ما هم فيه من الحال وما أصابهم من الجهد والضيق، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، عند ذلك أخذته رقة ورافة ورحمة، فتعرف إليهم وخاطبهم قائلاً لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ يُونُسَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٩] إذ فرقتم بينهما وصنعتما ما صنعتن ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ يعني: في حال جهلكم بعاقبة ما تفعلون بيوسف، وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم^(٤).

قال ابن كثير: والظاهر -والله أعلم- أن يوسف، عليه السلام، إنما تعرف إليهم

أي: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهدنا ومواثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ، ﴿وَسَلِّ﴾ إن شككت في قولنا ﴿الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ فقد اطلعوا على ما أخبرناك به، ﴿وَأَنَا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢] فيما أخبرناك به، لم نكذب ولم نغير ولم نبدل، بل هذا الواقع^(١).

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه حتى ابيضت عيناه، واتهمهم أيضاً في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى، وقال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣].

أي: ليس الأمر كما ذكرتم، لم يسرق فإنه ليس سجية له ولا خلقه وإنما ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾^(٢).

ثم ترجى من الله أن يرد إليه أولاده الثلاثة، وأمرهم بالرجوع والبحث عن يوسف وأخيه وعدم اليأس من رحمة الله. وامثل الأبناء أمر الوالد ورجعوا إلى يوسف عليه السلام.

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٨،

أيسر التفاسير، الجزائري، ص ٦٤١/٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٣٤/٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤٤/١٦، تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٤.

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٣، فتح القدير، الشوكاني ٥٥/٣.

(٢) المصادر السابقة.

ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ
بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

أي: بعد الهم والضيق، جعلني حاكماً
نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت،
﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي: البادية ﴿مِنْ بَعْدِ
أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي:
فيما كان منهم إلي من الأمر الذي تقدم
وسبق ذكره، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾
يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث
لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من
أمر يكرهها، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم
ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد
وضمائهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء
مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها
المقدرة لها (٢).

ثالثاً: سؤاله حسن الخاتمة ووفاته:

لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد
تمت، وشمله قد اجتمع، عرف أن هذه
الدار لا يقربها قرار، وأن كل شيء فيها ومن
عليها فاني، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند
ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف
له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه أن
يتوفاه، أي: حين يتوفاه على الإسلام، وأن
يلحقه بعباده الصالحين، قال: ﴿رَبِّ قَدْ
ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٨،
تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٥.

بنفسه، بإذن الله له في ذلك، كما أنه إنما
أخفى عنهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر
الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما
ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من
ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا
﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] (١).

لما قال لهم ذلك تبهوا وفهموا أنه لا
يخاطبهم بمثل هذا إلا هو فقالوا متعجبين
مستغربين: ﴿أَوْنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا
يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠] فاعترفوا بخطتهم
وقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا
وَأَنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ فعفا عنهم
وسامحهم، ثم أعطاهم قميصه فذهبوا به
إلى أبيه فارتد إليه بصره وأمرهم أن يأتوا
إليهم بأجمعهم.

لما أمرهم يوسف عليه السلام أن يتحملوا
بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر، رحلوا إليه
جميعاً ومعهم أبوهم فأواهم وأكرم مثواهم،
كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ
ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
ءَامِنِينَ ﴿١١﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ
سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ
جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ٩٩-١٠٠].

أي: هذا تعبير ما كنت قصصته عليك، من
رؤيتي الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر،
حين رأيتهم لي ساجدين، وأمرني بكتمانها،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٣٥/٢.

فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا [يوسف: ١٠١].

أي: آدم علي الإسلام وثبنتي عليه حتى
توفاني عليه.

﴿وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: أنه سأل
الوفاة على الإسلام واللاحاق بالصالحين
إذا حان أجله، وانقضى عمره؛ ولم يكن
هذا دعاء باستعجال الموت؛ بل كما يقال
في الدعاء: «اللهم أحينا مسلمين وتوفنا
مسلمين وألحقنا بالصالحين» أي: حين
تتوفانا^(١).

قال الحافظ ابن كثير: ويحتمل أنه
سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام،
كما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عند
احتضاره أن يرفع روحه إلى الملائكة الأعلى
والرفقاء الصالحين حيث قال: (في الرفيق
الأعلى)^(٢).

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل
الوفاة على الإسلام منجزاً في صحة بدنه
وسلامته، وأن ذلك كان سائعاً في ملتهم
وشرعتهم ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا،
فقد نهى في شريعتنا عن الدعاء بالموت

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٥٦.

تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٤٣٦،
كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى
الله عليه وسلم، ومسلم في صحيحه، رقم
٢١٩١، كتاب السلام، باب استحباب رقية
المريض.

إلا عند الفتن؛ فقد ثبت من حديث أنس بن
مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: (لا يتمنين أحدكم
الموت من ضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً،
فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي،
وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي)^(٣).

أما عند خوف الفتنة في الدين فيجوز
سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً
عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم
وتهدهم بالقتل قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا
وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وقالت مريم لما أجهأها المخاض، وهو
الطلق، إلى جذع النخلة ﴿يَا بَنِيَّ مِتْ قَبْلَ هَذَا
وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

لما تعلم من أن الناس يقذفونها
بالفاحشة؛ لأنها لم تكن ذات زوج وقد
حملت وولدت، فيقول القائل أنى لها
هذا؟، وكما في حديث معاذ في قصة المنام
والدعاء الذي فيه: (وإذا أردت بقوم فتنة،
فتوفني إليك غير مفتون)^(٤).

وتمنى الموت علي بن أبي طالب،
لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٥٦٧١،

كتاب المرضى، باب تمنى المريض الموت،
ومسلم في صحيحه، رقم ٢٦٨٠، كتاب
الذكر والدعاء، باب كراهة تمنى الموت.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢١٠٩.
وصححه الألباني في الإرواء ١٤٧/٣.

حَرَصَتْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣] (٢).
ولما حضرت يوسف عليه السلام الوفاة،
أوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر
فيدفن عند آبائه، فكان بمصر حتى أخرجه
معه موسى عليه السلام، فدفنه عند آبائه (٣).
عن أبي موسى الأشعري رضي الله
عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
(إن موسى حين أراد أن يسير ببني إسرائيل
ضل عنه الطريق فقال لبني إسرائيل ما هذا؟
قال: فقال له علماء بني إسرائيل: إن يوسف
عليه السلام حين حضره الموت أخذ علينا
موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى
تنقل عظامه معنا، فحفروا فاستخرجوا عظام
يوسف) الحديث (٤).

القتال، وكثر القليل والقال. وتمنى ذلك
البخاري لما اشتد عليه الحال ولقي من
مخالفيه الأهوال. فعند حلول الفتن في
الدين يجوز سؤال الموت (١).

ثم قال تعالى في ختام قصة يوسف:
﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا
كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾
[يوسف: ١٠٢].

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد،
صلوات الله وسلامه عليه، لما قص عليه
نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم،
وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم،
مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام:
هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب
السابقة.

﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به لما فيه من
العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك، ﴿وَمَا
كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً
لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي: على إلقائه في
العجب، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكننا أعلمناك
به وحيّاً إليك، وإنزالاً عليك يقرر تعالى أنه
رسوله، وأنه قد أطلعه على أبناء ما قد سبق
مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم
ودنياهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس.

ولهذا قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٥٧،
تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦٣٩،
٦٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٦٤١.

(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٥٩.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک ٢/٤٣٩، وابن

حبان في صحيحه، ٢/٥٠٠، وأبو يعلى في

مسنده ١٣/٢٣٦.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة

١/٦٢٢.

الدروس المستفادة من قصة يوسف

لقد اشتملت قصة يوسف عليه السلام على الكثير من الدروس والعبر والفوائد والهدايات مما يصعب حصره.

وقد قال الله في أولها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].

وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وكلما تأمل الإنسان في قصته استبانته له فوائد جديدة، وهذه الفوائد تتداخل وتشابك من حيث مضمونها ودلالاتها ولكنني حاولت تقسيمها إلى أربعة أقسام في أربعة مطالب:

أولاً: دروس عقديّة:

✽ الاستعانة بالله واللجوء إليه عند المحن والمصائب كما قال يعقوب عليه السلام عند فقد ولده: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. وكما قال يوسف عليه السلام عند خوف الفتنة ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]. «فينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي

كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْنَ وَأَكُنَّ مِنَ الْغَالِبِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].^(١)

✽ أن من وقع في مكروه وشدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].^(٢)

✽ وفيه أيضًا دليل على جواز الأخذ بالأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله، وهذا واضح في عدة مواقف في هذه القصة كتخزين الأرزاق، والأخذ بالأسباب الدافعة للعين وغيرها.^(٣)

✽ عناية الله بأوليائه المؤمنين ولطفه بهم، وتأييدهم عند الضعف والتفريج عنهم عند الكرب: فقد لطف الله بيوسف عليه السلام في البئر حيث حفظه وأمنه ونجاه منها، وهياً له من يكرمه بمصر، وحين عصمه من فتنة المرأة، وحين صبره في السجن وهياً له

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١٠.

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٠.

يتبرأ العبد من حوله وقوته كما قال يوسف عليه السلام: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنِ وَأَكُنْ مِنَ الْبَهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]. قال تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

❖ أن من اتهم بشيء وهو بريء فسييرته الله تعالى عاجلاً أم آجلاً؛ كما برأ الله يوسف عليه السلام على رؤوس الأشهاد، وبرأ موسى عليه السلام لما اتهمه قومه، وبرأ مريم عليها السلام بأن أنطق عيسى عليه السلام في المهد، وبرأ الله عائشة رضي الله عنها بآيات تتلى إلى يوم القيامة في سورة النور، وقد قال لها النبي صلى الله عليه وسلم قبيل براءتها: (إِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً، فسيبرئك الله) فتزلت براءتها^(١).

❖ وفي قصة يوسف عليه السلام دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن ما جاء به حق لا ريبه فيه؛ حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا

الخروج منه، وبرأه مما رمي به، ويمكن له في الأرض، إلى غير ذلك من مظاهر تأييد الله له وقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]. وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]. وغيرها من الآيات.

❖ حسن الظن بالله وعدم اليأس من رحمة الله ومن تحقيق الآمال مهما كانت الأحوال؛ فيعقوب عليه السلام فقد ولده يوسف عليه السلام زماناً طويلاً ولكنه لم ييأس فحقق الله له ما رجا.

❖ أن الله على كل شيء قدير وأنه يكرم من يشاء من عباده بما شاء: فقد رد الله ليعقوب عليه السلام بصره بعد ذهابه، وأوصل إليه ريح يوسف من مكان بعيد، ويمكن ليوسف عليه السلام على عكس ما كان يخطط لإخوته! ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

❖ أن العصمة من الزلل والثبات على الحق إنما هو بتوفيق الله و تسديده كما قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]. ولذلك ينبغي أن يطلب منه العون دائماً وأن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٦٦١، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، ومسلم في صحيحه، رقم ٢٧٧٠، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف.

✽ أن من آداب الرؤيا: أن لا يخبر بها المرء

إلا من يحب وذلك إذا رأى ما يسره،
أما إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها أحدًا،

قال يعقوب عليه السلام لابنه: ﴿قَالَ

يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رَأْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا

لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]. وفي الحديث

(الرؤيا الحسنة من الله، فإذا رأى

أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من

يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله

من شرها، ومن شر الشيطان، ولينقل

ثلاثًا، ولا يحدث بها أحدًا، فإنها لن

تضره) (٥).

✽ خطورة الحسد: وأنه يزرع العداوة

والبغضاء، ويفسد العلاقات، ويحمل

على الظلم والعدوان والكيد والتآمر

وتمني زوال النعمة؛ غير أن صاحبه أول

من ينال جزاءه: فيوسف عليه السلام

حسده إخوته فرفعه الله عليهم.

✽ عداوة الشيطان للإنسان، وأن من

أساليبه: الحسد والتحريش ﴿إِنَّ

الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

[يوسف: ٥].

✽ تجنب إظهار الميل إلى بعض الأبناء

دون بعض فقد يولد ذلك الحسد بينهم

دارس أحدًا (١).

✽ أن الفرج مع الكرب وأن مع العسر

يسر؛ فإنه لما طال الحزن على يعقوب

واشتد به، ثم حصل الاضطراب لآل

يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حيثنذ

بالفرج، فحصل التلاقي في أشد

الأوقات إليه حاجة (٢).

✽ البدء في دعوة المشركين بتوحيد الله

تعالى؛ كما فعل يوسف عليه السلام مع

الفتيين في السجن.

✽ الإيمان بالمبدأ، وصلابة الاعتقاد سبيل

لتخطي الصعاب، والترفع عن الدنايا،

وذلك هو الذي جعل ليوسف نفسًا

كريمَةً، وروحًا طاهرة، وعزيمة صماء

لا تلين أمام الشهوات والمغريات (٣).

✽ أن الله عز وجل يؤيد المظلوم ولو بعد

حين؛ كما حصل ليوسف حين برأه الله

ورفعه على إخوته.

ثانيًا: دروس تربوية وسلوكية:

✽ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر،

أخذ هذا من قول يعقوب عليه السلام

لابنه: ﴿قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رَأْيَاكَ عَلَى

إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥] (٤).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٧٠٤٤،

كتاب التعبير، باب إذا رأى ما يكره فلا يخبر

بها ولا يذكرها، ومسلم في صحيحه، رقم

٢٢٦٢، كتاب الرؤيا.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١١.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي ١٢/ ١٩٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٠.

خاصة بين أبناء الضرائر^(١).

❖ الحذر من شؤم الذنوب والمعاصي؛ لأن الذنب الواحد يستتبع ذنوباً متعددة؛ فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء ييكون، وغير ذلك وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة^(٢).

❖ ليس كل من بكى فهو مظلوم؛ فإخوة يوسف ألقوه في البئر ﴿وَجَاءَ آبَاَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦].

❖ أنه ليس كل من سجن فهو متهم أو مجرم بل قد يسجن البريء ظلماً وعدواناً كما حصل ليوسف عليه السلام.

❖ بركة الطاعة وحسن عاقبتها: و«أنها تثمر الرزق والأجر في الدنيا ولا ينقص ذلك من ثواب المؤمن عند الله شيئاً، كما قال تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]»^(٣).

❖ فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر،

وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب، لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]^(٤).

❖ أن الصبر من أعظم المسليات عند المصيبة؛ كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

❖ وأن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وكذلك الشكوى للمخلوق على غير وجه التسخط؛ كما حصل من إخوة يوسف حين شكوا ما مسهم من الضر فلم ينكر عليهم.

❖ فضيلة الإخلاص وأنه سبب للوقاية من الفتن والعصمة من الشهوات و«أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصاً لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه بيهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله: ﴿كَذَلِكَ يَنْصَرِفُ عَنْهُ الشُّوءُ وَالْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]»^(٥).

❖ أنه ينبغي للعبد الفرار من أماكن الفتن والمعاصي؛ ليتمكن من التخلص

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) النكت الدالة على البيان، القصاب ١/ ٦١٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٩.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٩.

منها؛ كما فعل يوسف عليه السلام حين راودته المرأة ^(١).

✽ أن المؤمن مبتلى وأن ذلك لحكم عظيمة؛ كما حصل ليوسف عليه السلام بعد الابتلاء من الرفعة وعلو المنزلة، وقد سئل الشافعي رحمه الله أيما أفضل للرجل، أن يمكن أو يبتلى؟ فقال: لا يمكن حتى يبتلى ^(٢).

✽ البدء بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله؛ كما فعل يوسف عليه السلام مع الفتيتين حيث دعاهما إلى التوحيد قبل تعبير رؤياهما، وأنه ينبغي للمستئول أن يدل السائل على ما ينفعه مما يتعلق بسؤاله؛ فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وطرق تخزينها ^(٣).

✽ أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين

لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ^(٤).

✽ أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكرًا حاله الأولى، ليحدث لذلك شكرا كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠] ^(٥).

✽ فضيلة العفو والصفح وأنه من أخلاق الأنبياء والرسل كما تجلى ذلك في عفو يوسف عليه السلام عن إخوانه، وعفو أبيهم عنهم كذلك، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَمْلَحَ فَلَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

✽ الأدب مع الوالدين وتوقيرهما وعدم الترفع عليهما واستشارتهما، كما فعل يوسف عليه السلام مع والديه حين أجلسهما على العرش، وحين كان قبل ذلك يستشير والده حتى فيما يراه في المنام.

✽ الحرص على الدعاء بحسن الخاتمة والوفاة على الإسلام، كما فعل يوسف عليه السلام.

ثالثاً: دروس فقهية:

- (٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

- (١) المصدر السابق.
(٢) انظر زاد المعاد، ابن القيم ١٣/٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٠.

وعلم من نفسه الأمانة والكفاءة، ولا يوجد من هو خير منه للقيام بها؛ كما فعل يوسف عليه السلام^(٥).

❖ أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال، إذا جهل أمره، وكان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]^(٦).

❖ جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب أو فعل محرم، وجواز استعمال المعارض القولية والفعلية وأنها مندوحة عن الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، وقال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ [يوسف: ٧٩]. ولم يقل: (من سرق متاعنا)^(٧).

❖ مشروعية الجعالة وهي: عقد على منفعة يظن حصولها، كمن يلتزم بجعل معين لمن يرد عليه متاعه الضائع، أو يحفر له هذه البئر، والأصل في

❖ أنه يجوز أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلاً في معنى الغيبة؛ لأن يعقوب عليه السلام قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له^(١).

❖ أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما؛ فإن إخوة يوسف لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضاً، وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةَ فِي غَيْمَتِ الْجَبِّ﴾ [يوسف: ١٠].

كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير^(٢).

❖ خطورة الخلوة بالنساء، وأنها مثار الفتنة؛ فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحيدها بيوسف، ولذا حرمها الإسلام^(٣).

❖ أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقدّه من دبره على صدق يوسف وكذبها، قال الشنقيطي: «وهذه الآيات المذكورة أصل في الحكم بالقرائن»^(٤).

❖ جواز طلب الولاية لمن حسن مقصده

(٥) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٥،

تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٠.

(٦) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٠.

(٧) المصدر السابق، ص ٤١١.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٠٩.

(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢١٦.

فإذا عبرت وقعت) ^(٥). ولذلك ينبغي أن نعبرها بالخير والمعاني الطيبة.

✽ أن الرؤيا قد تتأخر فلا يظهر مصداقها إلا بعد السنين العديدة ^(٦).

✽ وفيها: أصل لتعبير الرؤيا، وأن علم التعبير من العلوم المهمة، التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وأنه داخل في الفتوى، لقوله للفتيين: ﴿فَضَى الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، فلا

يجوز الإقدام على تعبیر الرؤيا من غير علم، وأن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة ^(٧).

✽ أنه قد تقع الرؤيا الصادقة من بعض الكفار -على سبيل النادرة- كرؤيا الملك والفتيين، ولا سيما إذا تعلق بمؤمن، أو كانت آية لنبي ^(٨).

✽ أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وَبُيِّنَتْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦]. ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز

مشروعيتها قول الله سبحانه: ﴿قَالُوا نَفَقْدَ صُورَةَ الْمَلِكِ وَلَمَنَ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢] ^(١).

✽ أن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا إذا جاء في شريعتنا ما ينسخه: «فالقطة في السرقة ناسخ لما تقدم من الشرائع؛ إذ كان في شرع يعقوب استرقاق السارق، وكان سلامهم بالانحناء، وقد نسخ الله في شرعنا ذلك» ^(٢).

رابعاً: دروس عامة:

✽ فضيلة العلم وشرفه:، فإن يوسف عليه السلام بسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض ^(٣).

✽ تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بما لقيه يعقوب ويوسف -عليهما السلام- من آلمهم من الأذى، وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم من آله أشد ما لقيه من بعداء كفار قومه ^(٤).

✽ أن الرؤيا إذا عبرت وقعت، لقول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن: ﴿فَضَى الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]. ولأن النبي صلى الله عليه وسلم: قال: (الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أنسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٥٩٥.

(٧) تفسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٧.

(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

١٢٤/٩.

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ٦٩-٧٧.

(٣) تفسير الكريم الرحمن، ص ٤١٠.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٩٩.

والتمكين في الأرض والسرور والغبطة
ما حصل بسبب يوسف ^(١).

✻ أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية،
لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب
عليه السلام جرى منهم ما جرى في
أول الأمر، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة
النصوح، والسماح التام من يوسف
ومن أبيهم، وإذا سمح العبد عن حقه،
فأله خير الراحمين ^(٢).

✻ استغلال أي فرصة للدعوة إلى الله
تعالى حتى في السجن كما فعل يوسف
عليه السلام.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الأخوة، البنوة، التبني، التمكين،
الحسد، الرؤيا، السياسة، النبوة

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٨.

(٢) المصدر السابق.